الدكتور أحمد زياد محبك

سرير الأمان

رواية

٢٠٢٦

العنوان: سرير الأمان
النوع : رواية
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
كتبت الرواية بين آذار عام ٢٠٢٤ وآذار عام ٢٠٢٥
المراجعة الأخيرة آب ٢٠٢٦

إصدار أول رقمي خاص آب ٢٠٢٦

البريد الرقمي: mohabek@gmail.com
الهاتف الجوال والواتس: ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢
العنوان: حلب – سورية

الشخصيات الرئيسية

ياسر: صاحب محل سوبر ماركت
أمينة: زوجته
منير: ابنه
ميادة، ماجدة، مها، ختام: بناته
عفاف: مديرة مدرسة الأمل.
سميحة: معلمة تتودَّد إلى ياسر.
نجدة: عجوز، حارس في مستوصف صغير
شريف أو الدكتور ذهب: ابنه
الرائد عمر: ضابط في الشرطة، عديل ياسر.
النقيب وسيم: ضابط في الأمن الجنائي.
أبو سعيد: دلال عقارات، صديق ياسر.
أبو حسن: نجار، محله بجوار محل ياسر
بهجت: صاحب مكتبة بجوار محل ياسر.
أبو علاء: مصلح غسالات.
أبو نديم: بائع خَضْرَاوات.
أبو جميل: صاحب محل لبيع الألبسة المستعملة.

المكان الرئيسي

حلب

حي صلاح الدين، شارع المدرسة

دمشق

وزارة التربية

زمن الرو اية

أيلول ٢٠٢٣ – حزيران ٢٠٢٤

ملاحظات

أي تشابه بين أي شخصية من شخصيات الرواية

وشخصية في الواقع الحقيقي

هو محض مصادفة

طوال الرواية ستروى الكنية "أبو فلان" على الحكاية من غير إعراب

طوال الرواية ستُحكى أسماء الأعلام من غير إعراب ولو كانت في حالة نصب.

قلبي يثِبُ حينما أرى

قوسَ قُزَحٍ في السماء
هكذا كنتُ في بَدْءِ حياتي
ولم يتبدَّلْ أمري بعدَ أنْ أصبحتُ رجلًا
وليكنْ هذا هو إحساسي بعدَ أنْ تنالَ مني السنون
وإلا، فليكنِ الْمَوتُ نصيبي.
فالطِّفْلُ هو أبو الرجل.
وإني لمفعمٌ بالأملِ أنْ تربِطَ التقوى الطبيعية
أيامي الواحدَ بالآخر.

وليم وردزورث[1]
١٧٧٠ - ١٨٥٠
إنكلترة

[1] **مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنكليزي**، ترجمة د. عبد الوهاب المسيري ومحمد علي زيد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،١٩٧٩، ص ١٤٥– ١٤٦.

1

يَسْمَعُ صوتًا هادئًا لوقوف سيارة، كأنه هسيس، يلتفتُ، عَبْرَ زجاج الواجهة للمحلِّ يرى سيارة فضيّة اللون، مغبرَّة كئيبة، تقف أمام المحلّ مباشرة.

ليس في سكان الشارع كلِّه مَنْ يملك سيارة، وليس في زبائنه مَن يملك سيارة، ولم تقفْ طوال عمره أمام محله سيارة، سوى سيارة توصيل البضائع، ينزل منها رجلان، وجههما لا يبشِّر بخير، يناله الشك.

الساعة حوالي الرابعة، عصر يوم غائم مِن أواخرِ أيام أيار.

يسأله أحدهما:

-أنت ياسر بن عبد الله، صاحب هذا المحل؟

-نعم.

-تفضَّلْ بالذهاب معنا.

يهمُّ بوضع هاتفه الجوال في جيبه، يأتيه الصوت:

-لا تأخذْ معك أيَّ شيء، لا الهاتف ولا المال ولا السجائر، فقط أغلق المحل بالباب الحديدي.

-إلى أين؟

-لا تسألْ، ولا تتكلمْ، ولا تضطرنا لوضع القيد في يديك، بهدوء، تفضَّل، ستذهب معنا.

فوق باب المبنى لافتة كبيرة، يقرأ :"الأمن الجنائي"، في غرفة صغيرة ضيقة، يسلّم المفاتيح، وكلَّ ما يحمل مِن نقود، مع البطاقة الشخصية، والحِزام الجلدي، وربّاطات الحذاء، وساعة اليد.

يسأل:

-ما المشكلة؟

-لا تسأل، نحن لا نعرف، ولا علاقة لنا، ستعرف كل شيء.

*

ينزل به رجل على الأدراج ثلاثة طوابق، تحت الأرض، يقوده عبْر ممرٍّ ضيق مُعتم إلى باب حديدي، مغلق، فيه كوة صغيرة، عليها قضبان، يفتح الباب، ويدفع به إلى الداخل، مِن غير أن يكلِّمه.

غرفة صغيرة، لا يزيد طولها على ثلاثة أمتار، وعرضها أقل من مترين، فيها خمسة رجال، يفترشون أرضًا مغطاة ببساط مهترئ، يتسرب إليها الضوء عبر الكوة من مصباح معلَّق في الممر مقابل الغرفة.

-هل حقا ما يقال عن صدور عفو عام مع عيد الأضحى؟

هذا أول سؤال يفاجأ به.

يعرِّفونه على أنفسهم، وهو لا يعرف ماذا يقول لهم؟

-صاحب محل في حي صلاح الدين، محل صغير لبيع المنظفات والرز والسمن والزيت والسكر، مهنة ورثتها عن أبي لا أعرف غيرها.

وتنهال عليه الأسئلة، وهو لا يعرف لماذا أُلْقِيَ به في هذه البئر.

هل عندك في المحل مواد ممنوعة أو مهربة؟ هل اشتريت من شخص مواد مسروقة؟ هل تتعامل بالدولار؟ هل بعت علبة سردين أو سمن انتهت صلاحيتها؟ هل عندك سجائر مهربة؟ هل تتعاطى المخدرات أو تتعامل مع تجارها؟

لا أحب الحديث عن نفسي، متعب، خائب، مكسور، ضائع، مرهق من سفر دمشق، يومان من السفر، في الفندق لم أنم، أدخل عليكم، وكأني خارج للتو من السجن، ذقن لم أحلقها منذ ثلاثة أيام، ماذا أحكي لكم؟

هل أحدثكم عن عفاف؟ عن بناتي الأربع؟ عن ابني الذي لا يحب الدراسة؟ وما فائدة الكلام؟

إسماعيل، أكبرهم سنًّا، يقول له:

-لا تخف، أنت في الأمن الجنائي، قضـيَّتُك حتمًا جنائية، ما هي قضـية سـياسـية ولا أمنية، هذا أقل الفروع الأمنية سـوءًا، سـيحقِّق معك الضـابط، ثم تُحَال إلى القضـاء، وقد يقتنع الضـابط المحقق ببراءتك، فيطلق سـراحك، ولا تُحال إلى القاضـي، وفق قناعة المحقق، المهم هو مجيء دورك في التحقيق، اليوم خميس، وغدًا جمعة، والسـبت عطلة، ولا أتوقع وجود محقق مناوب، عيد الأضـحى يوم الخميس، الأسـبوع بعـد القـادم كلـه عطلـة، لن يكون التحقيق معـك إلا بعـد أسبوعين، أو أكثر، الله أعلم.

ويضيف أحدهم:

-ليس لك هنا إلا الصبر، ولا بد من التلاؤم مع الواقع.

ويعلّق آخر:

-اطمئن، أنت هنا لسـت وحدك، أنتَ معنا، ونحن معك، لن نتركك تشـعر بالوحدة.

2

لم أسرق، لم أغش، ابني منير مشاغب، عنيد، مشاكس، أعرفه، مرة ضرب زميلًا له في المدرسة، شجّ رأسه، مرة أخرى كسر مرآة سيارة، صاحب السيارة جاءني وهو يشدُّه من أذنه، دفعت له ثمن المرآة، يحب السيارات، وضعته في محل تصليح السيارات، في حي الراموسة، القريب مِن بيتنا في حي صلاح الدين، لم ينجح في امتحان الشهادة الإعدادية، ولا يحب الدراسة، ولا يريد التقدم إلى الامتحان مرة ثانية هذا العام، هل تخاصم مع أحد الصُّنَّاع في المحل؟ هل أنا هنا بسبب مشكلة مع معلمه؟ لكن معلمه شديد، لن يسمح له، أنا أوصيته به.

لا أحد غير زوجتي، زوج أختها ضابط في الشرطة، برتبة رائد، وأختها معلمة، زوجتي دائمًا تلحّ علي، تريد العمل معلمة، مثل أختها، تريد الانتساب إلى الجامعة، خمس عشرة سنة من زواجنا وهي في كل سنة، مع بداية العام الدراسي، تفتح لي هذه المشكلة، حاصلة على الشهادة الثانوية، كأنها حاصلة على شهادة الدكتوراه، لو عملتْ معلمة لن يكفيها راتبها أجرة مواصلات، رُزْقُنا يأتينا من هذا المحل، لا أشك في أحد سواها، هي اشتكت وقادتني إلى هذه البئر، أختها تشجعها.

نعم، زوجتي، لا أحد غيرها، بعد أن عرَّفْتُها على عفاف، زاد تذمُّرها، مع أن عفاف لم تزرها سوى مرتين، رأتها مديرة قادرة على فعل كل شيء، غارتْ منها، أحسَّتْ أني أحبها.

منذ ثمانية أشهر تقريبًا وأنا أهجرها، ونحن الآن في أواخر شهر أيار، منذ قدوم عفاف، منذ بداية العام الدراسي، قلتُ لها: "أريد ولدًا، وأنت لا تنجبين غير الإناث"، أنجبتْ ولدًا واحدًا، هو الأول، أسميته منير، لعله ينير حياتنا، لكنه لم يفعل شيئًا يسر القلب، شيطان، لا يقرّ على الأرض، ولا يهدأ، خائب، بعد ذلك ألحقَتْهُ بأربع بنات، جدِّي خلّف خمسة ذكور، وابنتين، أنا وحيد، أمي أجهضت

بعدي ثلاث مرات، ثم أزالت الرحم، أبي توفي وأنا في الخامسة عشرة، تركت المدرسة، لم أنل شهادة الدراسة الإعدادية، حتى إني لم أتقدم إلى امتحانها، وتسلَّمْتُ المحل، وأنا في الخامسة عشرة، لا أريد لابني أن يظلَّ وحيدًا، ولد واحد لا يكفي، بقيتُ أكدح في هذا المحل عشر سنين، حتى استطعت الزواج، وأنا في الخامسة والعشرين من عمري، وها أنا ذا في الخامسة والأربعين، وابني في الخامسة عشرة، في مثل عمري يوم توفي أبي، لا أريده أن يظل وحيدًا، ولا أريده أن يترك الدراسة مثلي، عفاف شجعته على الدراسة، وأعادته إلى المدرسة، وهي تشجّعه على التقدم إلى امتحان الشهادة الإعدادية، مرة ثانية، لكنه بعد الانصراف، وفي أيام العطل، يذهب إلى معلّمه في حي الراموسة، يعشق تصليح السيارات، أنا تزوجت أمينة بعد نيلها الشهادة الثانوية، وهي في العشرين، أصغر مني بخمس سنين، هي الآن في الأربعين، هي من مواليد ١٩٨٩، وأنا من مواليد ١٩٧٩، ليس عندي إمكانية اتخاذ زوجة ثانية، دَخْلُ هذا المحل لا يكاد يكفينا، لذلك هجرتها، جعلتُ المحل بيتي وسكني، لكن أنا لا أبخل عليها، أرسل إليها كل ما تطلب، وهي ترسل إليَّ في المحل مع ابني منير الإفطار والغداء والعشاء، حتى شهر رمضان أمضيته في المحل، في الشهرين الأخيرين، بعد عيد الفطر، بدأت أعيد الطعام كما هو، لا أتناول منه ولا لقمة، الطعام الذي كانت تعدُّه ما عدت أطيقه، كم كنتُ أحب طهوها، صرت أكتفي بالحلاوة الطحينية، هي غذائي، أغنتني عن الطعام، حلاوة الحلاوة الطحينية هي حلاوة عفاف، كأني أجد فيها روح عفاف، تمدُّني بقوة جسمية وبطاقة روحية، أحس في داخلي بشعلة نار ونور.

أهل الحي هم عوَّدوني على الحلاوة الطحينية، طعامهم المفضل، كنت أبيع في اليوم كيلوين صرت أبيع خمس كيلوات، وصارت طعامي المفضل، وضعتها على منضدة قرب مدخل المحل، واشتريت سكِّينًا خاصة طويلة النصل لقطعها، أحيانًا أرسل إلى زوجتي مع ابني منير ربع الكيلو من الحلاوة، يرجع بها، يقول: "أمي لا تحبها، وأنا لا أحبها، ولا حتى أخواتي"، ابني ما عاد يحب الحلاوة، وحتى البنات، هي جعلت

البنـات يكرهن الحلاوة، لا لشــيء، إلا لأني أحبهـا، أظنّ مِن حقهـا أن ترفع دعوى تفريق، بسبب هجري لها، لكن لا أظن أنه من حقها رميي هنا في هذه البئر.

3

كيف لا أهجرها؟

عندما رأيت عفاف عرفت أن حياتي كلها لم تكن حياة.

حتى لو عملتْ زوجتي معلمة، ولو دخلت الجامعة، ولو أنجبت عشرة ذكور، لن تكون مثل عفاف، عفاف عالم آخر.

هل عفاف هي التي رمت بي في هذه البئر؟ أضحك، وإن كنت لا أشتهي الضحك، آه، لو عَلِمتْ عفاف لأسرعت بإخراجي من هذه الورطة، لكن أين أنت يا عفاف؟ سافرتُ لأجلك إلى دمشق، لكن رجعتُ خائبًا.

أنا أحب عفاف، وهي تحس بذلك، وإن كانت لا تحبني، كيف ستحب رجلًا أميًّا، أو شبه أمي، وهي معلمة، وجامعية، ومديرة، وقادمة من العاصمة، ما هذا الحب؟ لا أعرف بالضبط لماذا نُقِلَتْ إلى حلب؟ أبو سعيد قال لي: هي مكلفة بالتدرُّب على التنمية البيئية، لا أعرف بالضبط، في الحقيقة لا أفهم، هي لا تستحق أن تكون مديرة فحسب، بل تستحق أنت تكون مديرة التربية، بل وزيرة، لا شك ستصبح يومًا ما وزيرة.

أضحك من نفسي، أنا هنا في هذه البئر، مجرم مع المجرمين، ولا يخطر على بالي غير عفاف، خيالي يشطح معها، والله أحبها، مثلما يحبها الدكتور ذهب، ذلك المجنون.

خطئي أني أحببت أمينة، زوجتي، تزوجتها عن حب، لكن، هل كان حبًّا؟ لم يكن حبًّا، كان طيشًا، كل يوم تمرُّ أمام المحل، طالبة ثانوية، باهرة الجمال، أو هكذا رأيتها؟ هل حقا كانت باهرة الجمال؟ في تلك السن كنتُ أراها أجمل صبية في العالم، كنتُ في أيام المراهقة والطيش، وأنا حبيس المحل، لم أعرف غيرها من الصبايا، أي صبية أراها أظنها ملكة الجمال في العالم.

فرحتُ بأمينة، قلت: هي مثقفة، طالبة بكالوريا، وأنا لم أنل الشهادة الإعدادية، بل حتى لم أتقدم إلى امتحانها، رأيتُ في أمينة تعويضًا عن جهلي، وأنا أكبر منها بعشر سنين، خبرةُ العمر بالنسبة إليَّ أهم من الدراسة.

كنت أظن دَخْلَ المحل يكفي لتكوين أسرة، كان الدخل يكفي لنعيش عليه، لكن بعد ذلك الأمور تغيرت، الدنيا كلها تغيرت.

أمينة جميلة، لا أنكر ذلك، لكن مع عفاف تغيَّر فهمي للجمال والنساء والحياة.

4

أتذكَّر عفاف وأضحك، أنا هنا في الأمن الجنائي، مُلقى في بئر، لا نعرف الليل من النهار، ينعس أحدنا فينام، وهو قاعد، لا مجال للتمدُّد، أو قد يعطيه أحدهم مكانه، فيلتف على نفسه، وينام، مثل الجنين في رحم أمه، وأضحك أيضًا، أضحك في سرّي، يلتف الرجل على نفسه، وينام، مثل جنين، كيف خطر هذا لي على بال، هل الأمن الجنائي رَحِم؟ إذا خرجنا فسوف نخرج منه كأننا ولدنا من جديد، نحن هنا في قبر جماعي، لا، لسنا في رَحِم.

عفاف هي خلاصي في هذه البئر، في هذه العتمة، بين هؤلاء الرجال، هنا نحن رجال، لكن عفاف وحدَها معي، هي الخلاص، أتذكَّرها، فأنسى، لماذا لا أتذكر زوجتي؟ عفاف كانت هي الخلاص لي فوق، كانت عالمي الجديد، وعفاف هنا، في هذه البئر، هي عالمي الجديد.

سنوات مرت، لا أعرف كيف مرت، بحُلْوِها ومُرِّها، بعسلها ووخزات النحل، الشتاء كئيب، طوال عمري لا أحب الشتاء، لكن الشتاء الذي مضى كان أجمل أيام حياتي.

أراها عبر الزجاج في واجهة المحل متدثرة بمعطف أبيض، في يوم صحو مشمس، وهي تعدو نحو المدرسة، كالأرنب، والفرو الأبيض ملتف حول عنقها، فأحس بمتعة الحياة، أراها عبر الزجاج في واجهة المحل، وهي متدثرة بمعطفها الوردي، في يوم غائم معتم، وشعرها الأحمر يتناثر وراء ظهرها، مثل شعلة نار، فأحس بالدفء.

عفاف كانت حياة جديدة.

قال لي أبو سعيد دلال العقارات:

-في الشـقة فوق محلك سـتسـكن شـابة، في الثلاثين، قادمة من دمشـق، صاحبة منصب كبير، وجمال، أوصيك بها.

لهجته كانت هادئة محايدة جدًّا، لم أجد لها أي إيحاء، لكن الإيحاءات سـرعان ما تولدت في نفسـي، بل انفجرت، شـابة في الثلاثين؟ وأنا في الخامسـة والأربعين، أجمل مراحل العمر، سـن الرجولة، الحقيقة، كل مرحلة كنتُ أظنها أجمل مراحل العمر، وهي سـتسـكن فوقَ محلي مباشـرة، سـأعرف كل لحظة في حياتها، النوم، الاستيقاظ، الحمام، المطبخ، الطعام، الضيوف، السهرات، ولكن؟

أعرف الشـقة فوقي حق المعرفة، شـقة مفروشـة، أعرف تفاصـيلها، ثلاث غرف، صـغيرة، ومطبخ وحمام، غرفة مطلة على الشـارع، لها شـرفة، فوق محلي مباشـرة، وغرفتـان في العمق، فوق عمق محلي، فوق المسـتودع، وأعرف فرش الشقة، هي شقة مفروشة.

سألته متى ستأتي؟ أجاب مع بداية العام الدراسي.

العام الدراسي قريب، بعد شهر، لا أكثر.

لكن في اليوم التالي رأيته ينقل فرش الشـقة كله، ينقل كل أثاثه، حتى عدة المطبخ.

سألته:

-هل عَدَلْتَ عن تأجير الشقة؟ هل بعتَها؟

-لا، سأفرشها فرشًا أفخم من هذا الفرش، وسألصق أوراق جدران جديدة، سأجعلها تليق بها.

-ولكن هذا سيكلفك كثيرًا؟ وكم سيكون إيجارها؟

-لا تقلق، كل شيء له ثمنه، المنظمة العربية للتنمية البشرية التابعة لجامعة الدول العربية، هي التي تموّل كلَّ شـيء، فرصـة العمر، ابن عمي في دمشـق هو الوسـيط، ابن عمي تاجر بناء، انتقل إلى دمشـق، هناك الشـغل والحركة والحياة، حلب نشفت، طبعا، ابن عمي له نسبة، كل شيء له ثمن.

حاولت سؤاله عن اسمها وعملها، أجابني:

-لا تستعجل، غدًا تتعرف عليها، أنا أعطيتك الآن مفتاح حياتها.

قلت في سري: "ليتك تعطيني مفتاح شقتها".

كنت أحضر له الزبائن لاستئجار الشقة، ويعطيني المفتاح، لأدخل معهم إلى الشقة، كنت أحاول إقناعهم باستئجارها، لكنني كنت صادقًا، بل كنت صريحًا، أظهر محاسنها، وأوضّح مساوئها، لا أعرف كيف أزيّنها لهم، لم أفلح ولا مرة واحدة في تأجيرها.

الشارع ضيق، نسميه، نحن هنا في حي صلاح الدين، شارع المدرسة، عرضه أقل من ستة أمتار، لا يتسع لغير سيارتين، هو شارع خلفي، يمتد على طول أقل من كيلو متر واحد، يصل بين شارعين رئيسيين، تنهض على جانبه الشرقي عمارات من ستة طوابق، تطل عليه بمحلات ونوافذ وشرفات ضيقة، على جانبه الغربي تقع مدرستان متلاصقتان، إحداهما ابتدائية، مختلطة للبنين والبنات، والأخرى إعدادية للبنات، في الجانب الأول الشرقي محلات، ومن بينها محلي، الجانب المقابل الغربي جدار إسمنتي أصم عال، لا نوافذ ولا فتحات، كأنه جدار سجن، هو جدار المدرستين، هو سور الباحتين المتلاصقتين، غطَّتْه كتابات تُمحى وتُزال ثم تتجدَّد، كتاباتُ حبٍّ وغزل، أو كتابات هجاء للحكومة، أتذكَّر الآن هذا، ثم أتذكَّر كيف تغيَّر كل شيء، تغيَّر مع قدوم عفاف.

باب المدرستين على الشارع الرئيسي، ليس على هذا الشارع، عدد قليل من الطلاب والطالبات يمرون في شارعنا، بعضهم يمر لشراء مبراة أو ممحاة أو دفتر، لكن أكثرهم يذهبون إلى المدرستين من الشارع الرئيسي، ومرات كثيرة وقعت حوادث عند باب المدرستين.

مع عفاف اختلف الأمر، فتَحَتْ باب المدرستين على شارعنا، شارع فرعي آمن، لا تمر فيه السيارات، أجمل ساعة هي ساعة انصراف الفوج الأول من المدرستين، وحضور الفوج الثاني، طبعًا لا أنسى ساعة الصباح، هي الأكثر جمالًا،

ترى الأطفال كالزهور تتفتح في الشـارع، عفاف غيرت الدنيا كلها، ولم تغير الشـارع، فحسب.

هو شـارعي أنا، فيه ولدت، وهنا في هذا المحل بين المحلات الكثيرة مع أبي نشـأت، ولن أتركه حتى أموت، ولن أغيّر في رفوفه ولا في المواد التي أبيعها، سـعيد أنا بهذا الحي، مطمئن إليه، هو عالمي كله، لا أكاد أغادره، إلا في العيدين لزيارة قبر أمي وأبي.

على اليمين من محلي نجار، أبو حسن نجار أبواب ونوافذ، يملأ رأسي بدقات مطرقته، بجواره أبو علاء، مصـلح غسـالات، تتعطل الغسـالة عندي، فيصـلحها، ويرفض أخذ أجرة، سـوى ثمن القطع التي يبدّلها، أنا أُكْرِمُه، أعطيه علبة سـمن، وبعده محل أبو نديم، بائع خَضْرَاوات، كلُّهم طيبون، على اليسـار من محلي مكتبة، صـاحبها الأسـتاذ بهجت، معلِّم متقاعد، طوال اليوم يسـتغرق في القراءة، لا أعرف ماذا يقرأ، عنده دفاتر وأقلام وأوراق وقصـص أطفال، وأنا عندي دفاتر وأقلام، هو يزوِّدني بها بسعر الجملة، وأنا أبيعها بالسعر الذي يبيعها هو، ربح قليل، الغاية منه جَلْبُ الزبائن، وأحيانا لا أحرجه، فأشتري الدفاتر والأقلام من محل الأستاذ هشام، محله في أول شارع الخضراوات، في حي صلاح الدين، بعد شارع جامع بلال، أنا ألجأ إلى بهجت لا لأن محله أقرب، بل لأنه رجل طيب، الأسـتاذ هشـام فيه خشـونة وقسوة، بعد محل الأستاذ بهجت محل أبو جميل، محل لبيع ألبسة أطفال ونساء، ألبسـة مستعملة، بعده مكتب صديق العمر أبو سعيد، دلال العقارات، بيع ورهن واستئجار.

5

كنت أسهر في المحل حتى الساعة العاشرة، أغلق المحل، وأصعد إلى البيت، أسهر مع الزوجة وابني منير والبنات، البيع لا يكون إلا في الصباح، قبل افتتاح المدارس، أستيقظ باكرًا، أفتتح المحل في السادسة والنصف، ويمر بي الأولاد وهم في طريقهم إلى المدرسة، هذا امتلأ دفتره المدرسي فيشتري دفترًا، والآخر أضاع قلمه فيشتري قلمًا، وثالث يشتري مسطرة، ورابع يشتري علبة بسكويت، بعد أولاد المدرسة تأتي الأمهات، أم عمر تشتري مسحوق الغسيل، والآنسة علياء، وهي في طريقها إلى الوظيفة تشتري علبة بسكويت، لتتناولها في الوظيفة، في الانصراف تشتري ربطة خبز، أم أيمن تشتري ربع كيلو من البن.

قبل أن تسكن عفاف سألت نفسي: هذه الجارة الجديدة ماذا ستشتري؟ هل ستفتتح صفحة في دفتر الدين، مثل أكثر سكان هذا الشارع؟ أبو أحمد في أول الشهر يأتي ليسدِّد ما تراكم عليه مِن دَيْن، ويصيح مستنكرًا: "كل هذا المبلغ سحب به الأولاد الدفاتر والأقلام والسكاكر؟"، أقول له: "لا تنسَ أم أحمد، سحبت الصابون ومسحوق الغسيل وأسفاط البيض، وعلب السمن، والسكر، والشاي، والبن"، ويصيح: "أنا، والله، واثق من صدقك وأمانتك، لكن، أخي، بعد اليوم لا تعط الأولاد أي شيء"، ويزفر، ويضيف بصوت فيه الخجل والهدوء والحسرة: "راتبي كلُّه لن يسدّ هذا المبلغ"، وأضيف: "لا تقلق، سدِّد نصف المبلغ، وإلى الشهر القادم، لعل هناك زيادة في الرواتب"، ويعلّق: "الغلاء يسبق كل الزيادات"، أنا لا أستطيع إلا أن أبيع سكان الحي بالدَّيْن، إذا لم أبعهم بالدين، فلا أحد سيشتري، هل ستشتري الجارة الجديدة بالدَّيْن؟

نزلتُ من البيت لأفتح المحل، في السادسة والنصف، كعادتي، بعد حوالي الساعة، وربما في التاسعة، يدخل أبو سعيد.

- بعد قليل، ستصل عفاف.
- مَن عفاف؟
- مديرة المدرسة، المستأجرة الجديدة.

كان قبل يومين قد دعاني إلى الصعود إلى الشقة لرؤيتها في أثاثها الجديد، قلت له: "أعرفها"، قال: "لا، ستراها الآن، ولن تعرفها"، دخلت، دهشت، حقيقة لم أعرفها، كل شيء فيها جديد، ورق جدران فاخر، ثريات صغيرة جميلة تتدلى من السقف، سقف جديد مستعار، في جوانبه إضاءة مخفية، متعدِّدة المستويات، غرفة جلوس، أنيقة، ناعمة، مخمل أزرق، ومخمل أصفر، وورق جدران أزرق فاتح، منضدة زجاجية متألقة، مزهريات كبيرة وصغيرة، موزعة في الجوانب، شاشة تلفزيون في الجدار أنيقة، الغرفة مفتوحة على غرفة أخرى تقع فوق محلي بالضبط، ولها شرفة، تطل على الشارع، قال لي أبو سعيد:

- هذه غرفة مكتب، فما رأيك؟
- هل هي وزيرة؟
- لا، لكن في مقام وزير.

غرفة مكتب فخمة، لم أشاهد مثلها إلا في التلفزيون، مثل مكاتب الوزراء، ثم اتجهنا إلى الغرفة الداخلية، وتقع في العمق، فوق عُمق محلي، هذه هي غرفة النوم، غرفة نوم كأنها غرفة للأطفال، لكنها جميلة جدًّا، لون زهري، كأنه النرجس، هنا الربيع، على الأرض مقابل السرير جلد خروف أبيض ناعم.

المطبخ صغير، لكنه أنيق جدًّا، رفوف ألمنيوم عسلية اللون، المطبخ خلية عسل، حقيقة، غسالة جديدة، ثلاجة جديدة، ميكروويف جديد، أدوات جديدة، لم تمسسها يد من قبل، تتوسط المطبخ منضدة طعام صغيرة، وكرسيان فاخران متقابلان، تتوسط المنضدة آنية زهر ساحرة، قرب المَجْلَى أواني زروع صغيرة، فيها ريحان ونعنع وورود ناعمة.

كان اشترى من محلي كل ما يلزم المطبخ من سمن وسكر وزيت وأرز وعدس وبرغل وصابون، وكل ما يلزم من مؤونة، كلّها أودعها في أوعية زجاجية ملونة، المطبخ حقل زهور.

هممت بالخروج، قال لي:

- لم تشاهد الشرفة؟
- أعرفها.
- لا، تفضل لتشاهد الشرفة.

أدهشتني الشرفة، السقفُ خشبٌ مستعار، فيه إضاءة مخفية، واجهة زجاجية بلون بني فاتح تطل على الشارع، تخفف من حدة الشمس، ستائر مزخرفة يمكن أن تحجب الضوء كليًّا، أُصُصُ زروع وزهور من أنواع شتى، منضدة صغيرة تتوسط الشرفة، مقعد عريض مريح، مقعد هزاز، أرجوحة صغيرة، حوض سمك.

- كلَّفك هذا كثيرًا.
- لم أدفع من حسابي ولا ليرة.
- كيف؟
- المنظمة العربية للتنمية، هي التي تكفَّلت بكل شيء.
- وكيف أنجزتَه في شهر؟
- عمال، وأموال، المال يصنع كل شيء.
- ما توقعت هذا؟
- هل تصدق؟ سافرت إلى دمشق، ونمت ثلاث ليال، نزلت ليلة في فندق الشام، وليلة في فندق فور سيزن، وليلة في فندق الميريديان، وصوَّرتُ الغرف التي نزلتُ فيها، ومنها استوحيت هذا التحديث للشقة، ولو كانت الشقة أكبر قليلًا، لصنعتُ فيها ما هو مدهش أكثر، آه، لو ترى الفخامة في فندق فور سيزن.
- وكم سيكون آجار هذه الشقة؟
- لا تسأل.

- وهل هي قادرة على الدفع؟ هل يكفيها راتب مديرة؟

يضحك، يعلق، هي لن تدفع، المنظمة العربية للتنمية هي التي ستدفع.

أبو سعيد أفسد عليَّ حياتي، وعفاف؟ لا، عفاف لم تفسدها، عفاف جعلتني أعيش معها في الشقة، ولو في الخيال، وكان هذا وحده يكفيني، لذلك، أنا هنا في البئر، في فرع الأمن الجنائي، لكن أنا هناك في الشقة، مع عفاف، ولو أنها لم تكن فيها، الخيال مرض، الخيال شفاء.

لا أنسى، كيف توقَّفتْ أمام المحل سيارة أجرة صفراء جديدة فخمة، لاحظت على بابها الجانبي عبارة "شركة الأمان حلب- دمشق"، قال لي أبو سعيد:

- وصلَتْ.

وأَسْرَعَ إلى الخروج من المحل، تردَّدتُ قليلًا، ثم لحقتُ به.

نزلت عفاف من السيارة، تقدمتْ من أبو سعيد، صافحتْه، أشارَ إليّ،وقال لها:

- جارُكِ، صديق العمر، ياسر، أبو منير، صاحب محل السِّمَانة، كما نسميه، أو البَقَّالية، وإذا شئتِ: ميني ماركت صغير، أغلى الأسعار، وأردأ الأنواع.

ضَحِكَتْ، مدَّتْ يدَها مصافحة.

يد دافئة ناعمة، لم ألمس مثلها مِن قبل، كأن أنفاسها فيها، كأن أناملها تتكلم.

- وهذه شقتُكِ، فوقَ محله.

نزل السائق، فتح صندوق السيارة، وأنزل ثلاث حقائب كبيرة، بادرت أريد حمل حقيبة، فأسرعت تستوقفني:

- أرجوك، لا تتعبْ نفسك.

السائق حمل الحقائب الثلاث إلى الشقة، واحدة بعد الأخرى، حتى حقيبة اليد السمسونايت حملها، عندما رجع، فتحت حقيبة يدها ناولته مئتي دولار.

بعد أن صَعَدَتْ، التفتُّ إلى أبو سعيد، وسألته:

- كيف تتعامل هكذا صراحة بالدولار، وأنا أعرف إذا...

قاطعني، وهو يبتسم:

- نحن غير هي، أو هي غير نحن.

6

يومان وأنا مريض، عقلي مغلق، لا أعرف كيف أفكّر، هل حياتي هي حياة؟

بعد يومين، أو ثلاثة، وأنا أنزل إلى المحل، كعادتي في السادسة والنصف رأيت بضعة عمال يحملون حاوية القُمامة، ويضعونها في شاحنة، وحين رآني أحدهم، وأنا أفتح المحل، قال لي:

- نهنئك، أزلنا حاوية القمامة من أمام محلك.

شكرت العمال، وزَّعتُ على كلِّ واحد منهم زجاجة كولا صغيرة، وقطعة حلاوة طحينية كبيرة، وضعتها فوق رغيف خبز أبيض رقيق.

في الحقيقة لم أكن مستاء من وجود الحاوية من قبل، ولكن الآن تَنَبَّهْتُ إلى ذلك، الأُلفة بلَّدتْ إحساسي، منذ أن كنتُ طفلًا كنتُ أرى الحاوية أمام المحل، ثم كبرت، ووجدتها عادية، بل لعلي كنت أستريح لوجودها أمام المحل، فكنت أرمي فيها صناديق الكرتون التي تفرغ، كنت أتذمَّر عندما تتأخر سيارة النظافة، فيمرُّ يومان أو ثلاثة، ولا تدخل في الشارع لتفرغ الحاوية، كانت أكياس القمامة تتناثر حولها.

سألتُ أحد العمال:

- بعد حَمْلِكم الحاوية، أين سيرمي الناس قمامتهم؟ أخشى أن يرموها في موضع الحاوية، وهذا أسوأ.

تبسَّم العامل، وهو يرفع زجاجة الكولا إلى فمه المملوء بلقمة كبيرة من الخبز والحلاوة، ثم أشار إلى كلٍّ من بداية الشارع ونهايته، وهو يبتسم، ولا يتمكن من الكلام.

نظرتُ، فإذا هنالك على الرصيف في بداية الشارع حاويتا قمامة جديدتان نظيفتان، ومثلهما في نهاية الشارع.

وما إن ابتعد العمال مع الشاحنة وهي تحمل الحاوية، حتى جاءت سيارة فيها خزان ماء، وأخذ ثلاثة عمال في غسل موضع الحاوية بالماء والكلور، عندئذ تنبَّهْتُ

حقيقةً إلى أنني أمضيت عمري هباء، ولم أفكِّر، بل لم أتوقع أن تُرْفَعَ حاوية القمامة من محلها، بصراحة لم أحس بقبحها من قبل، الألفة قتلتني، أما بالنسبة إلى صناديق الكرتون، فلم أعد أرميها في الحاوية، بدأت أجمعها، وفي نهاية الأسبوع تمرّ بي شاحنة صغيرة، يحمل صاحبها كل ما تراكم عندي من صناديق، ويَزِنُها، ويعطيني ثمنَها، ثلاثة آلاف ليرة ثمن الكيلو الواحد.

بعد يومين، رأيتُ عمالا يهدمون السور الحجري العالي للمدرستين، وفي يومين فقط، هدموا السور كله، كان بعلو ثلاثة أمتار، يعلو المدرسة، ويحجبها، كأنه سور سجن، أو قلعة، هدموه، وجاءت جرافات وشاحنات، ونقلت الركام، في اليوم التالي بنوا سورًا من حجر أصفر فاخر، بارتفاع متر، ونصبوا قنطرتين متجاورتين، في الوسط من السور، عرفتُ أنه سيوضع هنا بابان للمدرستين، في اليوم التالي نصبوا فوق السور الحجري القصير سورًا من قضبان الألمنيوم البني الفاخر، بعلو مترين، ووضعوا بابًا لكل مدرسة، البابان من الألمنيوم البُنِّي الجميل.

كنت أراقب عملهم من وراء الزجاج في واجهة محلي، وأدهش، كيف يحدث هذا التغيير؟ أتذكر هذا كله الآن، وأنا هنا في قاع هذه البئر، لم يعد يهمني، سواء أكنت في فرع الأمن أو خارجه، أنا هنا مع ذلك الماضي الجميل، مع ذلك التحوُّل المدهش غير المعقول، الذي كان.

لم يمض سوى يومين حتى رأيت ذات صباح عمالًا يدهنون الحجارة في حافة الرصيفين، حجرًا بالأبيض، وحجرًا بالأخضر، في الرصيفين، رصيف المحل والأبنية، ورصيف المدرستين، دهشت ولم أجد تفسيرًا، هل تغير رئيس البلدية؟

عصر يوم، والآنسة عفاف راجعة إلى البيت، أطلَّتْ عليَّ، في المحل، ومن غير أن تدخل، سألت:

- هل أعجبتك التحسينات في الشارع؟

دُهِشْتُ، عَرَفْتُ أنها هي وراء هذه التحسينات، سألتني:

- هل عندك اقتراح آخر؟

دماغي مغلق، لم أستطع وقتئذ أن أتخيل أشياء أخرى، ربما لو قلت لها أريد تبديل الرفوف في المحل والخزائن، ربما كانت بدلتها، لكن خيالي مغلق، بعد سفرها، نشط خيالي، امتلأ بها، فتحرك، وبدأ يبدع، بالأحرى، لا يستطيع الإبداع، يستطيع فقط التذكر، ماذا سأبدع؟ وأنا هنا في هذه البئر، حتى إني لا أفكر في الهرب، وكيف أهرب، وكل ما حولي إسمنت، يكفيني أن أتذكر.

ما إن مرتْ ثلاثة أيام حتى رأيت عمالًا يصنعون حُفَرًا في الرصيف المقابل، رصيف المدرسة، وفي رصيفنا، رصيف محلي والمحلات المجاورة على طول هذا الشارع اليتيم، ونحن نسميه شارع المدرسة، وتأتي جرافة صغيرة فترفع التراب وترميه في شاحنة صغيرة، ويحيط العمال كل حفرة بحافات حجرية بيضاء، وتأتي شاحنة كبيرة محملة بتراب زراعي أحمر نظيف، ويأخذ العمال بملء الحفر بذلك التراب الأحمر الناعم.

لم أصدق، وأنا أراقب المشهد من داخل المحل، وأرى ما يجري من وراء الزجاج في واجهة المحل، كأني أشاهد فيلمًا في التلفزيون، قلت في نفسي: "خسارة، لن تنجح فيها غراس الأشجار، سيقتلعها الأولاد"، ولكن فوجئت في اليوم التالي بشاحنة كبيرة، تحمل شجرات لا فسائل، شجرات بطول مترين وأكثر، ذات فروع وأغصان، والعمال ينزلونها في الحُفَر، وتأتي شاحنة أخرى محملة بتراب أحمر، ويبدأ العمال بردم الحفر بالتراب.

أمام محلي مباشرة وضعوا شجرتين، شجرة على اليمين، من المحل، وشجرة على الشمال، ستكبر الشجرتان، سيمتد ظلهما، وتمنحان محلي الظل البارد في الصيف، ما كان أحوجني إليهما، لماذا لم أفكر أنا وأهل الحي بغرس مثل تلك الأشجار، لماذا لم نطلب ذلك من البلدية؟

كل يوم أحد، مع بداية الدوام الأسبوعي، تأتي باكرًا في السادسة صباحًا، سيارة، تغسل الشارع والرصيفين بالماء، قبل أن يبدأ توافد الطلاب والطالبات على المدرسة، وتملأ أحواض الشجر بالماء.

حقيقة تغيَّر الحيُّ كله، الفضل كله لعفاف.

٧

ولكن، وأنا في بئر الأمن الجنائي، يعكر خيالي الدكتور ذهب، مثلما كان يعكر صفو الشارع.

ما كان لأحد أن يعكر صفو الشارع إلا الدكتور ذهب، لا بدَّ من أن يدخل إلى المحل مرتين أو ثلاث مرات، كل يوم، ولا بد من أن يقدم لي مرة حبة أسبرين، ومرة حبة سيتامول، ويلح عليَّ في ابتلاعها، ويؤكد أن الوباء منتشر في البلد، وأُوهمه أني أبتلعها، ولكني أرميها في سلة المهملات، من غير أن ينتبه، ولا بُدَّ لي من أن أقطع بالسكين قطعة حلاوة وأعطيه إياها، يلقيها في فمه، ويطلب قطعة أخرى، يحملها بين أصابعه، ويخرج، إذا لم أفعل، فسوف يمد أصابعه إلى الحلاوة الطحينية، ويقطع بأظافره قطعة منها.

أكثر ما كان يزعجني هو شراؤه كل يوم علبتين أو ثلاث علب سردين، كان في البدء يأبى إلا أن يفتحها أمام المحل، ويضعها على الرصيف، وتسرع إليه القطط، ويتناثر ما في العلب من زيت على الرصيف أمام المحل، ولكن أمام زجري له عدة مرات، كان يذهب إلى قرب الحاوية ويفتحها هناك، أخيرًا توقفت أنا عن جلب علب التونة والسردين إلى المحل، هي في الأساس غير مطلوبة، سعرها لا يناسب سكان الحي، الطلب عليها قليل.

وتخلّصنا نهائيا من السردين والقطط برفع الحاوية من أمام المحل، لكن لم أستطع التخلص من طلبه قطعة حلاوة كل يوم.

الدكتور ذهب، شاب في الثلاثين، معتوه، ذكي، خبيث، أبله، ماكر، لا تعرف، أحيانًا أجده لا يعكِّر صفو الشارع، أحيانًا أجده مسليًا، يقال كان طالبًا في كلية الاقتصاد والتجارة، أحب زميلته، وتزوجت أستاذها، فحاول الانتحار، ويقال ضربته سيارة، فقد الذاكرة، ويقال أصيب بالحمى وهو طفل، ويقال انتسب إلى كلية الطب، وفشل في الدراسة، وترك الجامعة، لا أعرف الحقيقة.

ومع حضور عفاف تفاقم الأمر.

ينتظرها عند باب المدرسة، يقدم لها كل يوم حبات سيتامول، يقطع معها الشارع أمامي، من باب المدرسة إلى باب العمارة، وهي تتسامح معه، لا تطرده، ولا تقسو عليه، وهو يلح عليها في أخذ حبات السيتامول، تجامله، فتأخذها، بل تشتري له من المحل علب البسكويت، ورغيف خبز وقطعة حلاوة كبيرة.

أقول لها:

- لا تبالغي في التسامح معه، هو مزعج.

تضحك، تعلق:

- مسكين، علينا استيعابه، لعله يشفى، هذا جزء من عملي.

أضيف:

- أخشى أن يُسِيءَ إليك ذات يوم.

- لن يفعل، كل أهل الحي يعرفونه.

وحدث الأسوأ، أشاع بين الناس أنها تحبه، وأنه سيخطبها، وما يفتأ يردد أمام أهل الحي: "خطيبتي المديرة عفاف".

ما يزعجني هنا في هذه البئر هو تذكُّري الدكتور ذهب، لا أستطيع نسيانه.

الدكتور ذهب ليس اسمه، اسمه الحقيقي شريف، لا أعرف كيف ظهر فجأة في هذا الشارع، ما كنت أراه من قبل، منذ أربع سنوات فقط، أو خمس لا أكثر، لم يكن له حضور من قبل في هذا الحي، ظهر فجأة هو وأبوه نجدة، أبوه حارس ليلي في مستوصف الرجاء، في الشارع الفرعي الموازي لشارعنا، شارع المدرسة، عرفناه حارسًا ليليًّا، لكن بدأ بعد ذلك يمارس بعض ما يمارسه الممرض، يتصل به المساكين من أهل الحي، هذا جُرِحَتْ يدُه ليلًا جرحًا بليغًا، فيخيط له الجرح، وذلك يحتاج إلى تعليق السيروم، والثالث اشتد به الألم فيعطيه حقنة ديكلوفيناك، ولم يكن في الحقيقة ممرضًا، كان يخدم الأطباء ويساعدهم، يمسح سيارة مدير المستشفى كل يوم، أو يغسلها، كان جريئًا وطموحًا، تعلّم من الأطباء تعليق السيروم

وإعطاء حقنة في العضـــل، وربما غامر فأعطى حقنة في الوريد، أذكر مرة، قبل سنة، ارتفعت ليلًا حرارة ابني منير، ذهبت إليه في المستوصف، حيث ينام هو وابنه، فأعطى لابني حقنة، كان نجدة يتطلَّع إلى تفوّق ابنه شريف في الدراسة، لكي يصبح طبيبًا، هكذا ســمعنا، قال له: "الطب ذهب"، في أثناء تحضـيره لامتحان الشــهادة الثانوية، أصـــابته حمى، أعطاه ثلاث حقن ديكلوفيناك، كاد الولد يموت، أصـــيب بخلل في التفكير، لم يتقدم إلى الامتحان، وترك الدراســـة، وصـــار يكرر: "الطب ذهب"، هذا ما يقال أيضًا، لا أعرف الحقيقة، أحيانًا يضع في عنقه سماعة طبيب، أو يرتدي صدرية بيضاء، ويحمل في جيبه حبوبًا مختلفة الأشكال والألوان، ويوزعها على الناس، ويقول: "أنا الدكتور ذهب"، أحيانا كان يقف في باب المستوصف ويعطي الزوار بعض الحبوب، ويقول لهم: "خذوا هذه الحبوب، أنا الدكتور ذهب".

ليتني أنسى الدكتور ذهب، صورة وجهه لا تغادر مخيلتي، عينان صغيرتان جدًّا باهتتان، مثل عيني فأر، نظارة طبية سميكة، بين لحظة وأخرى يثبتها على أرنبة أنفه، فم مائل من أثر لَقْوَة أو جلطة، لا أعرف، لا أريد تذكُّرَه.

يوم هبطتْ عفاف من سيارة الأجرة، ومدتْ يدها تصافحني، لا أنسى ذلك اليوم، أريد لأنسى وجه الدكتور ذهب، أريد دائمًا تذكُّرَ عفاف.

٨

هي لحظة لا أنساها، غمرتني بعطرها، لا أنسى إشراقة وجهها، كأنني أرى الدنيا أول مرة، أحسستُ يومها أنني وُلِدْتُ من جديد، هي كل نساء الأرض، هكذا رأيتها، اختصرتْ كل الورود والرياحين والزنابق، جمعتْ كل أصوات العصافير والبلابل والكناريات والحساسين، صوتها له نغم خاص، قدَّمني إليها أبو سعيد، قال لها:

- ياسر صاحب المحل، وإذا شئتِ: أبو منير.

كلمة واحدة نطقتْ بها:

- أهلا بك، يا أبو منير.

أحسستُ بالعسل يقطر من شفتيها، عيناها تغرّدان، امتلأت الدنيا فرحًا، عندما نطقتْ: "أبو منير"، أحسستُ أنني حقيقة أبو منير، كثير من الناس ينادونني أبو منير، لكن اسم أبو منير هذه المرة اختلف، اختلفَ الاسم والصوت، أتذكَّر كيف اندفعتُ بشهامة لأساعد السائق على حمل الحقائب، قالت: "لا تتعبْ نفسك".

بدأت أنزل إلى المحل في الخامسة، بدلًا من السادسة والنصف، ولا أغادر المحل إلا في الثانية عشرة، منتصف الليل، أمر بباب شقتها، أتنسَّم شذى القهوة، هي تستيقظ باكرًا، وأستمع إلى فيروز، وهي ترسل نغماتها الصباحية الناعمة، لا أعرف أفيروز تغني، أم هي التي تغنِّي؟

وأسرع إلى المحل، أستمتع بوقع خطواتها، لا أعرف كيف تمشي، لخطواتها موسيقى، تتجاوب مع صوت فيروز، وفي المساء لخطواتها وقع آخر، هادئة ناعمة متثاقلة، تنسجم وأغنيات فيروز، أظنها تمشي حافية، أحسُّ ملاسة قدميها، نعومة أصابعها، أحس أنها خرجت إلى الشرفة، وأنها فوق المحل تمامًا، ربما لو مالت برأسها

إلى أسـفل، لو أني رفعتُ رأسـي قليلا عبر الواجهة الزجاجية، لكانت نظراتنا التقت، أحس بالزجاج يعكس صورتها، كأني أرى شعرها الأشقر، ووجهها المتألق، في المساء يمتد نور غرفتها عبر الشرفة أمام المحل، فيضيء الدنيا كلها، وليس الشارع وحده، عيناي معلقتان دائمًا على واجهة المحل الزجاجية، كأني أراها، وأنا أعرف أنها لن تمر ولن تأتي، في المساء أحس وقع خطواتها، وفي الليل، وأنا أصعد الدرج إلى شقتي تبطئ خطواتي، أشم شذى قهوتها، قهوتها مميزة، لا أعرف السر، البن تشتريه من محلي أنا، ولكن، للقهوة، وهي تُعِدُّها، شذى آخر مختلف يصَّاعد من شقتها.

لا أعرف كيف يصل شذى قهوتها إلى غرفتي، كأنها تُعِدُّ القهوة في غرفة نومها، لتصل إلى غرفة نومي، أستيقظ على رائحة قهوتها، شقتي في الدور الرابع، بيني وبينها طابقان اثنان، لكن لا شيء من الأسقف أو الجدران بيني وبينها، سمعت عن أشخاص متميزين يَرَوْنَ عبْرَ الجدران، أنا صرتُ أرى وأسمع وأشم عبْرَ الجدران، وعبْرَ الأسقف والأسطح والطوابق، أراها في ثوب النوم، أراها في سريرها، أراها في المطبخ، أراها في الحمام، كأن جسمي كله وعقلي وروحي جهاز تتبُّع يتتبَّعُها حيثما تحرَّكَتْ.

بعد حوالى الشهرين من قدومها، أو أقل، هجرتُ زوجتي، صار المحل بيتي وشقتي وسكني ومأواي وقبري ومُلتحدي، بل فردوسي وجنَّتي، حتى الطعام التي كانت ترسله هجرته، ليس لي من طعام سوى الحلاوة، وليس لي مِنْ سَمْعٍ سوى هسهسات قدميها، وهي تسير حافية، وليس لي من شذى سوى شذى قهوتها يعبق في أرجاء الكون.

ذات صباح، وأنا أخرج من باب العمارة، سمعت تغريد كناري، سقسقات جميلة جدًّا، أصغيتُ، كناري يرسل التغريد، يقطِّعه، يُسَقْسِق، يمدُّه، يغيِّر النغم، توقَّفَ، صمتَ، ثم أعاد التغريد، عَدَدْتُ التنويعات، كانت اثني عشر نغمًا مختلفًا.

نظرتُ إلى شقتها، وإذا في الشرفة فوق المحل، في شرفتها، وقد فتَحَت الزجاج، قفصٌ فيه كناري ذهبي اللون، كالشمس، مال برأسه نحوي ينظر إلي بعينين

سـوداوين، ثم عاد إلى التغريد، ما هذا الذوق؟ أيُّ فن هذا؟ طوال حياتي لم أفكر في شـراء كناري، كيف أمضـيت عمري وأنا لا أعرف هذا الكائن الجميل؟ كنت أرى عصـافير الدوري تحط بجوار الحاوية، تنقر ما يمكن أن تلتقطه، أحيانا كنت أرى غُرابًا أسـودَ في الصـباح ينبش في أكياس القمامة، ما كنت أعرف أن في الدنيا كناريًّا كهذا.

أبو حسـن جاري، النجار، كانت دقات مطرقته هي التي تصـلني، هي الإيقاع الوحيد الذي أسمعه، اليوم بدأت أسمع سقسقات الكناري.

وأدخل إلى المحل، ويظل تغريده يصلني، يمازجه شذى القهوة بالهال، وتدخل طفلة، تلثغ بصـوت ناعم: "عمي، أليد قلم لصـاص"، تقصـد أريد، أعرفها، ابنة أم عصـام، أحب لثغتها، لكنها اليوم أجمل، هي إيقاع آخر يضـاف إلى شـذى القهوة وتغريد الكناري.

عفاف، هي وحدها التغيير في حياتي، هنا في هذا المحل، في هذا الحي، في هذه العمارة، عملت مع أبي في هذا المحل وأنا في الثامنة من عمري، محل لبيع المنظفات والسـكر والشـاي وقطع الحلوى للأطفال والكتب والدفاتر والأقلام والمحايات والبرَّايات وحقائب المدراس والزيت والسـمن وعلب السـردين والتونة، عملتُ هنا أجيرًا عند أبي، أنقل الطلبات إلى سكان العمارات في الشارع، أصعد الأدراج وأهبط الأدراج، وأتلقى بعض الهِبَات، امرأة تعطيني قطعة حلوى، وأنا أحمل لها البنّ، وثانية تنفحني خمس ليرات، وثالثة تمسح على شعري، ورابعة تقبّلني في خدي، نساء الحي أعرفهن، وأعرف البنات والصبيان، الرجال خشنون، لا أحد منهم يعطيني ولا ليرة واحدة، أبو حسَّان لو حملتُ له ربطة خبز وعلبة سمن وسفط بيض، وصعدت تسعين درجة إلى الطابق الخامس، يسألني بجفاء: "هل أنقصتَ رغيف خبز وخبأته تحت قميصك؟"، وأشكوه إلى أبي، فيقول: "لا تزعل، هو يمزح معك"، أبي طيب، يحبّه كل الجيران، عندما تُوُفِّي، وأنا في الخامسة عشرة، مَشَوْا جميعًا في جنازته، وأطلَّت النساء من الشرفات والنوافذ.

أمي توفيت بعد زواجي بثلاثة أعوام، توفيت بعد أن رزقت بابني منير، فرحت به أشد الفرح، الحمد لله توفيت، ولم تشهد ولادة أربع بنات.

لم أكلِّف ابني أيَّ عمل مما كان أبي يكلّفني به، أردتُ له الاهتمام بالمدرسة والدروس، ولكن عقله معلق بالسيارات، لا يحب الدراسة، هو يقول لي: "لا أحب المدرسة، أحب السيارات، ضَعْني عند معلِّم تصليح سيارات، أحب هذه المهنة"، قلت له: "انتظر، حتى تنال الشهادة الإعدادية على الأقل"، لم ينجح في امتحان الشهادة الإعدادية، فوضعته في محل لتصليح السيارات.

أتذكّر هذا فأحس أني في حفرة، هنا في الأمن الجنائي، وأتذكر عفاف، فأحس أني في الفردوس.

هل حياتنا مجرّد ذكريات، خيال، أوهام؟

كنتُ أكره الكتابات على جدار سور المدرسة، كتابات حب وغرام فجّة: "عيونك حياتي"، "لن أنساك"، "أنت لي إلى الأبد"، "أنت العسل"، "حبنا إلى الأبد"، ورَسْمٌ سخيفٌ لحرفين بينهما قلب، كان العمال يُطْلُون الجدار بالكلس الأبيض، كل شهرين أو ثلاثة، ويعود المراهقون إلى كتابة تلك الكلمات، حتى اليوم، بعد إزالة السور الحجري العالي، ما يزال المراهقون يكتبون مثل تلك الكلمات، على السور الحجري القصير، وهو لا يكاد يبلغ المتر، مراهقون يكتبونها ليلًا عندما يكون الشارع خاليًا من المارَّة، وهم يتوهمون أن الصبايا سيقرأن تلك الكلمات، وهن ذاهبات إلى المدرسة، أطفال مراهقون، لا شك هي كتابات من طلاب المرحلة الإعدادية، واختلف الأمر، الآن بدأت أحبّ تلك الكتابات، صرتُ أقرؤها، كأني أنا مَن يكتبها، وإن كانت في الحقيقة سخيفة ومبتذلة، والعمال اليوم يعيدون طلاء ذلك السور القصير كل أسبوعين مرة، والعشاق يعيدون الكتابة.

آه، لو أعرف الشعر، كنت نظمت لها أجمل الأشعار، هل أكتب اسمها على كل الجدران، مثل أولئك الأطفال المراهقين؟ يكفيني أن اسمها مكتوب في قلبي.

تقول لي زوجتي معاتبة: "كنتَ تغلق المحل في العاشرة، بدأتَ تسهر في المحل حتى الثانية عشرة، هل هناك مَن يأتي منتصف الليل لشراء قطعة صابون أو نصف كيلو سكر، وكنتَ تفتح المحل في السابعة والنصف، بدأت تنزل إلى المحل في الخامسة؟" تغيّر كل شيء في حياتي، كنت أشرب القهوة قبل خروجي من البيت، بدأت أشربها في المحل.

بعد ذلك، بعد شهرين من وصول عفاف، بل بعد أقل من شهرين، نسيت البيت والزوجة والأولاد، لا أريد أن أتذكر الآن، صار المحل كل شيء، محلي هو دنياي، آكل فيه وأنام، أسمع هسيس خطواتها، أعيش معها.

٩

زادت حياتي متعة، ولكن فجأة انقلب كل شـيء رأسًـا على عقب، اسـودّت الدنيا كلها في وجهي: المحل والشـارع والعمارة والشـقة والزوجة والأولاد والطعام والشراب.

يدخل أبو سـعيد المحل، وأنا أجمع ما تراكم من ديون على جاري الحاج عثمان، أفاجأ به، أرفع وجهي نحوه، يقول لي:

- قلت لي مرة إنك تتمنى أن تنام ولو ليلة واحدة في شقة عفاف.

- نعم، قلت.

ويمد إليَّ يده بمفتاح، وهو يقول:

- تفضل، خذ هذا مفتاح الشقة، اصعد لتنام.

أسأل مشدوهًا:

-وعفاف؟

-سافرت، غادرت قبل الفجر.

-لم تودِّعْني؟

-لا تحبُّ ساعات الوداع.

لا أصدق، أظنه يمزح، أخرج من المحل، أرفع رأسي إلى شقتها، أرى القفص معلَّقًا في الشرفة، وفيه الكناري، أرجع أقول له:

-أنت تمزح، القفص والكناري في الشرفة.

-تركَتْهُ هدية لك، ذكرى.

-كيف تترك المدرسة؟

-انتهى العام الدراسي، لا تعرف هذا؟

-نعم، أعرف، وابني منير قدّم امتحان الشـهادة الإعدادية، ورجع إلى محل تصليح السيارات، لكن أعرف، في العادة المدير يداوم في المدرسة يومين في الأسبوع، دائمًا كنّا نرى المديرة السابقة طوال الصيف وهي في المدرسة.

-عفاف سـافرت، لتسـتلم عملها مديرة المنظمة العربية للتنمية البشـرية، المدة التي أمضتها هنا كانت للتدريب.

يومها صعقني الخبر، لم أصدق، كأنني فقدتُ أحد أفراد أسرتي، يوم ماتت أمي لم أُفاجأ، طبعًا حزنت، لكن أمي كانت مريضـة، مرضَ الموت، كما يقال، لم أفاجأ بموتها، لكني فوجئت برحيل عفاف، كأنها كانت شِقّي الأيمن، ضلعي الأيسر، كأنها كانت سَـنَدِي، آه، لو كانت الآن في حلب لأسـرعتْ إلى إخراجي من هذه البئر، عفاف صاحبة نفوذ، ليتها تعلم أني هنا.

نسيت أن أسأله، كانت وعدتني أن تهديني الحاسوب، قالت لي: "من الضروري في عصرنا التعامل مع الحاسوب، عصرنا هو عصر المعلوماتية"، قلت لها: "أنا لم أحصـل حتى على الشـهادة الإعدادية"، قالت: "العمل عليه ضـروري، أنت تعرف القراءة والكتابة، يكفي هذا لتعمل على الحاسوب، هو سيفتح أمامك العالم كله"، ترى هل تركت لي عنده الحاسوب؟ إذا لم أعمل أنا عليه، فسوف أعطيه لابني منير، ليعمل عليه.

شـيئا واحدًا كرهته فيك يا عفاف، سـامحيني، كانت عفاف قد بدأت تزور زوجتي، أظنها زارتها مرتين، أحبَّتْها، ذات يوم قالت لي:

- سوف أسعى لتأمين عقد عمل لزوجتك في روضة خاصة، تعمل مشرفة على الأطفال، دعها تخرج إلى الحياة، لترى العالم.

فهمت من كلامها أن زوجتي لم تُخْبِرْها بهجري لها، وعفاف نفسـها لم تتنبّه إلى هجري زوجتي، لو عَرَفَتْ لكانت توسَّـطَتْ بيني وبينها، زوجتي تملك عزّة نفس، تأبى أن تخبر أحدًا، وأنا حرصت على ألَّا يشعر أحد بما بي.

أبو سـعيد، أعز أصـدقائي، لم أخبره بشـيء، وهو لم يتنبَّه إلى أني أنام في المحل.

مرة واحدة، طوال صـداقتي معه، حدثته عن رغبة زوجتي في الانتسـاب إلى الجامعة، وأنا أرفض ذلك، سـألني: "لماذا ترفض؟" قلت له:" أريدُها تُعنى بالأولاد"، ضحك، قال مازحًا: "أنت لا تريدها أفضل منك"، ثم أولاني ظهره ومضى.

كرهت صديقي أبو سعيد، استأت منه، لم أصارحه، حافظت على صداقته، ثم نسيت.

كرهت عفاف أيضًـا، كرهتك يا عفاف، سـامحيني، لكن سـرعان ما نسـيت ذلك، أنا الآن بحاجة إليك.

لن أصـعد إلى شـقتها، لا أريد القفص ولا الكناري، سـأطلقه، فَلْيُحَلِّقْ في الفضـاء بحرّية مثلها، هي انطلقت غادرت تحرَّرَت، وتركت لي القفص، سـأحطّمه، وأُطْلق الكناري، سأتركه ليطير، ليضيع، لتأكله قطة الجيران.

لكن لم ألبث أن علقته في واجهة المحل، أمامي، أراه في كل آن وحين، حيثما التفتت أراه، صوته يملأ حسي ووجداني.

هو روح عفاف.

يا إلهي، الكناري الآن في المحل، والمحل مغلق عليه، أصـبح المحل قبو الأمن الجنائي، ما الذي جناه حتى يغلق عليه المحل، ليتهم سمحوا لي بإحضاره معي.

حتما سوف يموت قبل أن أخرج من هذه البئر.

الرجال هنا، في هذه البئر، يتكلمون عن همومهم، عن حياتهم، أحدهم يقول لي:

- يا رجل، تكلَّمْ معنا، فضفض، حدِّثْنا عن حياتك.
- لا شيء.

هل أحدثهم عن عفاف؟ سـيسـخرون مني، سـيظنون أني كنت على علاقة معها، هل أحدثهم عن الكناري؟

١٠

لا أعرف كيف مرَّ ذلك اليوم، أغلقتُ من الداخل الباب الزجاجي للمحل، لا بيع ولا شـــراء، وحلَّ الليل، لا يواتيني نوم، كنتُ أحسُّ، وأنا في المحل، كأني في قبر، كأني في زنزانة، كان يومًا لا أعرف كيف أمضـــيته، والليل كان أقســـى، أقســـى مما أعيش الآن، كان المحل في ذلك اليوم أصـعب من هذه البئر، الباب الزجاجي الخارجي مقفل، وأنا لا أبيع ولا أشتري، ولا أستقبل أي زبون.

مع الفجر، ومن غير نوم، سافرت إلى دمشق.

مع انطلاق البولمان أحســـســـت بالحرية، أنا ذاهب للقاء عفاف، هناك سألتقيها، سأبوح لها بكل حبي.

ســافرتُ إلى دمشــق، أكاد أضـحك، الرجال هنا في بئر الأمن الجنائي ينظرون إلى وجهي، ذقني لم أحلقها منذ عدة أيام، وأنا متعب، يومان من السـفر إلى دمشـق، وليلة بينهما لم أنم فيها، وليلة من قبل في المحل من غير نوم.

لا أعرف دمشـق، طوال عمري لم أغادر حلب، بل لم أغادر هذا الحي، لحيتي طويلة، ليس معي حقيبة، استمتعتُ بالرحلة، كيف لا أستمتع وأنا ذاهب إلى دمشق لأرى عفاف، هذه أول مرة أركب فيها بولمان، مقعدي وراء السائق، مريح جدًّا، ممتع، كأني في حضـــن أمي، وأنا طفل، كأني في حضـــن عفاف، والبولمان ينطلق، يتهادى، ينسـاب مثل السـمن فوق العسـل، أو العسـل فوق السـمن، وفيروز ترسـل أغنياتها الصـــباحية الهادئة، تذكرت عفاف، وهي ترســـل لي أغنيات فيروز، طوال عمري ما كنت أستمع إلى أي مطرب، هي حبَّبَتْ إليَّ فيروز.

دخلك يا طَيْر الوروار
رُحْ لك من صَوْبٌ مشوار
و سلِّم لى ع الحبايب

و خبّرني بحالهن شو صار

تمنيتُ لو أقعد في مكان السائق، وأستمتع بقيادة هذا البولمان، كأنني في طيارة، لا أعرف الطيارة، ولكن أحس كأني في طيارة، والأتوتستراد يمتد أمامي، كم السفر ممتع!

ما إن مرت نصف الساعة، حتى أبطأ السائق من سرعة البولمان، ومر بعدة مطبَّات، ثم توقف، ونهض المعاون وجَمَعَ مِن الركاب، رجالًا ونساء بطاقات الهُوِيَّة، عَرَفْتُ أن هذا هو الحاجز الذي كنت أسمع عنه، غاب المعاون أكثر من ربع الساعة، ثم رجع، أعاد البطاقات.

خمس مرات، أو ست مرات، جمع المعاون بطاقات الهوية، خشيت أن أكون مطلوبًا، في كل مرة قلبي يخفق، آخر حاجز، قبل دخولنا دمشق، تأخَّر المعاون أكثر من عشرين دقيقة، ضجّ الركاب، من ورائي سمعت أحدهم يقول، وكأنه يكلم نفسه: "لا بد من تدقيق كل البطاقات على الكومبيوتر".

كنت أسمع أحاديث كثيرة عن الحواجز، ولا أعرف حقيقتها، حكوا لي أنه كان على الطريق إلى دمشق أكثر من اثني عشر حاجزًا، تصل الحافلة إلى دمشق في ست ساعات، بدلا من أربع، ما عاد أحد من الشباب يسافر إلى دمشق، وإلا أمسكوا به وقادوه إلى خدمة العلم، وأي خدمة؟ هي خدمة الضباط، الضابط يسأل العسكري: ما مهنتك؟ عامل دهان، عامل ورشة خياطة، عامل بِنَاء؟ والبقية معروفة، يسخره في خدمته وخدمة أهله وأقاربه وأصحابه، وإذا كان أبوه صاحب معمل أو من التجار، تعال في بداية الشهر، ومعك مليون ليرة، ثم ارجع إلى حلب، هذه هي خدمتك للعَلَم، تمضيها في حضن أمك وأبيك، ليس سرًّا، الكل يعرف هذا.

أنا وحيد، معفى، لم ألتحق بخدمة العلَم، إذا أردتَ أن يُعفى ابنك، فعليك أن تبيع ذهب زوجتك، وأن تدفع سبعة آلاف دولار، نقدا في المصرف، على شرط أن تكون كلها من فئة مئة دولار، جديدة، وليس عليها ختم أو توقيع من صرَّاف، وليس في أي طرف من أطرافها شق ولو بمقدار ميليمتر واحد، ولا أحد يسألك من أين

أحضـــرتها، على حين لو أمســـك بك وأنت تتاجر ولو بدولار واحد، لكان أمامك محكمة اقتصادية وغرامة وسجن.

الحمد لله لا أعرف وجه الدولار، ولا شكله، ولا لونه.

أنا لا أعرف كل هذا، صديقي أبو سعيد هو الذي حكى لي، دفع لابنه سعيد سبعة آلاف دولار، جديدة، غير مطوية، ولا مثنية، الموظف في المصرف لا يقبلها إلاّ جديدة، ومن فئة مئة دولار، هكذا هي التعليمات، ولا يقبل من فئة الخمسين، حكى لي عن الموظف، وجهه صارم، كأنه جلاد، أبو سعيد عانى الأمرين حتى أنجز معاملة دفع البدل، مع أن له معارف كثيرين في الجيش والأمن وفي كل دوائر الدولة، طبعًا، هذا كله بعد أن أمضى ابنه أربع سنوات في السودان، دفع البدل لا يكون إلا بعد أن يغترب ابنك خارج البلاد أربع سنوات.

أبو سعيد أرسل ابنه إلى السودان، كل البلاد العربية مغلقة أمام السوريين، الله غضب على السوريين، السودان وحدها مفتوحة الأبواب أمام السوريين، زوده بثلاثة آلاف دولار، ليعمل في تجارة الصمغ، السودان مشهورة بالصمغ العربي، بعد أربع سنوات خسر كل شيء، رجع وعليه دين، وأبوه كان يرسل إليه الدولارات.

الله يلعن الدولار ومن صـــك الدولار، أنســـاني ذكر عفاف، لا، لا يمكن لأيِّ شيء أن ينسيني ذكر عفاف، عفاف هي عفاف.

فور نزولي من البولمان، أخذتُ سيارة أجرة، طلبتُ من السائق توصيلي إلى وزارة التربية، أجرة التكسي في دمشق أكثر من حلب، لا يهمّ، المهم أن أرى عفاف، دمشق مزدحمة، ومسلية، سأرى عفاف، ونتمشى معًا في شوارع دمشق، سأكون جريئًا مثل الدكتور ذهب، سأتحرش بها.

في باب وزارة التربية استوقفني الحارس.

- إلى أين؟
- أريد مقابلة الآنسة عفاف.

ردَّ بجفاء:

- لا يوجد في الوزارة موظفة اسمها عفاف.

أخذتُ في وصف شكلها:

-شقراء الشعر، نحيلة، قوام معتدل.

سخر منّي، ردَّ:

- لا يهم شقراء، ولا سمراء، ما عملها؟ ما وظيفتها؟

تلعثمتُ، قلتُ له:

- لا أعرف، هي مديرة.

ضحك، علق:

- هنا كلهم مديرات ومديرون، ما هو طلبك؟ ما هي المعاملة التي جئتَ من أجلها؟

- جئتُ لأراها، أرجوك، اسمح لي بالدخول، أنا سأبحثُ عنها.

أتذكر هذا الآن، وأسخر من نفسي، أكاد أضحك، لا بأس، هنا في قاع هذه البئر، أحلم، وأتذكر الدولار وعفاف والسفر إلى دمشق، ولا بد من تذكُّر الدكتور ذهب.

الحارس سخر مني، قال:

- أهل حلب أذكياء، ما رأيت شخصًا مِنْ حلب يشبهك، لا أصدّق، أنت لستَ من حلب.

أتكلَّم بعصبية، ونزق:

- أنا، والله، من حلب، وإذا لم تصدِّق أنا من فسط حلب، نحن هكذا نقول، وهذه بطاقة هويتي.

ومددتُ يدي لأخرج بطاقة الهوية، قال لي:

- أخي، اسمع مني، ارجعْ إلى حلب، أنصح لك، أخشى أن يتهموك هنا...

وأشار بأصابعه إلى رأسه، تذكرت الدكتور ذهب، رأيت نفسي مثله، حتى وأنا في دمشق تذكرت الدكتور ذهب.

لا أعرف دمشق، مشيتُ، مشيتُ، مشيتُ كثيرًا، لا أعرف أسماء الشوارع، شوارع عريضة طويلة واسعة، محلّات مسلية، وصلت إلى محل لبيع الكنافة النابلسية، فوق المحل لافتة تحمل اسم: "أباظة"، لا أنسى الاسم، ولا المحل، أكلت صحن كنافة، وطلبتُ الثاني، لا أنسى طعمها، كنتُ أسمع عنها، لكن وجدتها أطيب من وصفهم لها، تمنيتُ لو أن عفاف كانت معي لتأكل صحن النابلسية، كنت سأطعمها بيدي في المحل، ولو أمام الناس، كل الناس.

نمتُ في فندق، نسيت اسمه، في ساحة المرجة، قريب من ساحة المرجة، في سوق مزدحم جدًّا، تذكرت، أظن فندق العباسي، أو العباسيين، مشيت ومشيت، حتى وصلت إلى ساحة المرجة، عرفتُها من تلك الصومعة التي تتوسَّطها، وفوقها مجسَّم مسجد، قعدت في مقهى، وشربت كأس شاي، وقصدت فندقًا أمام المقهى، ونمت من القهر والتعب، ولكن لم أنم النوم الحق، أحلام وكوابيس.

أفقت باكرًا، فورًا ذهبتُ بسيارة أجرة إلى وزارة التربية، الباب مغلق، قرأتُ لوحة مكتوبًا عليها: المراجعة الساعة ١١.

بحثتُ عن مقهى فلم أجد، قعدت على الرصيف في ظل شجرة، مقابل باب الوزارة، وأنا أرقب الموظفين والموظفات القادمين إلى الوزارة.

مرَّ بائع ذرة مسلوقة، بليلة، كما نسميها في حلب، اشتريتُ عرنوسًا، وبدأت أستمتع بتناوله بهدوء، أريد تمضية الوقت، ليتها تمرّ وتراني، لا بد أن تأتي، هي مديرة، والمديرة تتأخر، سأظل أنتظر.

أتابع ساعة يدي، أعد الدقائق.

أمضي إلى الباب، أقرعه، تنفتح كوة، يطلّ منها وجه الحارس، هو الحارس نفسه، عرفته، وعرفني.

سألته، وأنا أبتسم بلطف:

- هل جاءت الآنسة عفاف؟

يبتسم، يسأل:

- هل نمتَ هنا في الشام لأجلها؟
- نعم.
- هل عندكَ معاملة في الوزارة، أنا سوف أساعدك، هات المعاملة.
- لا، والله، ما عندي معاملة.
- جئتَ من حلب إلى دمشق لتراها؟
- نعم.
- هل هي من دمشق؟
- نعم، وكانت في حلب، كانت مديرة في حلب، وانتقلت إلى دمشق.
- مع انتهاء العام الدراسي كثيرٌ من المعلمات ينتقلن إلى دمشق.
- هي في الأصل من دمشق.

الحارس يضحك، يفتح باب الوزارة، ويسمح لي بالدخول، يعطيني كرسيًّا، يرى التعب باديًا على وجهي، يقدّم لي كاس شاي، ويسأل:

- هل معك في هاتفك الجوال رقم هاتفها؟

أضرب جبهتي بيدي.

- والله، يا أخي، عملتْ مديرة مدرسة أمام محلي، وسكنتْ في الشقة فوق محلي، وما أخذتُ رقم هاتفها، لم أكن بحاجة إلى رقم هاتفها، كل يوم أراها من وراء زجاج المحل، هجرتُ زوجتي لأجلها، أحسّ بخطواتها في شقتها فوق محلي، عشتُ في ظلها طوال العام الدراسي، كنتُ كل يوم أراها، ما فكرت في طلب هاتفها.

الحارس يضحك، يتكلم، في صوته تأكيد:

-أنتَ عاشق، حبك حب عذري، مثل مجنون ليلى، هكذا نسمع عنه، ورأيناه في المسلسلات، لكن نحن في زمن ما عاد فيه مثل هذا الحب.

عندما أخرج من الأمن الجنائي، سوف أشتري كتاب مجنون ليلى، سأقرأ قصته، طوال عمري ما قرت قصة، ولا جريدة.

أخجل، أسكت، أنهض، أهم بالخروج:

- أخي، اسمع مني، انزل إلى جسر فيكتوريا، تناول صحن فتة شامية بالزيت أو السمن، في محل المصري، وبعده اذهب إلى سوق الحميدية، تناول صحن بوظة بالقشطة من محل بكداش، برّدْ قلبَك، وبعدَها اذهب إلى الجامع الأموي، وصلِّ لله ركعتين، وقفْ أمام ضريح نبي الله يحيى، وتوسَّل به إلى الله ليجمعك بِمَنْ تحب، ثم خُذْ سيارة أجرة فورًا إلى كراجات حلب في حرستا، أنت تبحث عن خيال.

- عفاف حقيقة، من لحم ودم، ليست من الخيال.

- هل عندك زوجة وأولاد؟

أجبته بانكسار:

- عندي زوجة هجرتها من ثمانية أشهر، قلتُ لك، هجرتُ زوجتي من أول تعرُّفي على عفاف، وعندي أربع بنات، وولد واحد، زوجتي لا تنجب غير البنات.

- اسمع مني ارجع إلى حلب، لن تجد هنا عفاف، ارجع إلى زوجتك وأولادك.

مشيتُ، مشيتُ، مشيتُ منكسرًا، شوارع دمشق خنقتني، ضعت، ما عدت أعرف أين أنا، تمنيتُ لو أصل إلى محل أباظة، لأتناول صحن نابلسية، لو أعرف الطريق إلى حرستا لمشيت، سألت الله أن يكفيني ما بقي معي مِن مال، لا يمكن أن أنام ليلة ثانية، استوقفتْ رجلًا، سألته عن حافلة يمكن أن توصلني إلى كراج حرستا، فأشار إلى الشارع الموازي، وقال: "هناك تمر سيرفيسات توصلك إلى حرستا".

تجاوزت الشارع، ومشيت، مشيت، حتى وصلت إلى الشارع الموازي، وسألت أحد الرجال عن السيرفيس الذي يمكن أن يوصلني إلى حرستا، فأشار إلى الرصيف الذي يقف عنده السيرفيس.

لم يكن هناك زحام شديد، لكن انتظرتُ أكثر من نصف ساعة، حتى وصل سيرفيس مكتوب على اللافتة في مقدمته: "كراجات حلب - حرستا"، دخلتُ فيه، اتخذتُ لنفسي مقعدًا، وانطلق.

حقيقة شوارع دمشق طويلة، ومسلية، لكنَّني أجدها خانقة.

هي، هي نفسها، يا إلهي، هذه هي عفاف، بشعرها الأشقر، ومعطفها الوردي، أَلْتَفِتُ إليها، أشير بيدي، أصيحُ بالسائق:

- نزِّلْني هنا، عندك.

السائق يرد، وهو يمط صوتَه ساخرًا:

- أخي، لا نستطيع التوقُّف إلا في مواقف محدَّدة، وأنت لما ركبتَ قلتَ لي قصدك حرستا.

- رأيت شخصًا أعرفه، أريد النزول.

- لا أستطيع التوقُّف إلا في الموقف، انتظر، الموقف القادم قريب.

مرَّتْ خمس دقائق والسيرفيس منطلق بسرعة، في الموقف، التفتَ إليَّ، وقال لي، كأنه يطردني:

-تفضَّلْ، انزِلْ.

وجدتُ نفسي لا إراديا أنزل، رجعتُ أهرول على الرصيف في الاتجاه المعاكس، والناس ينظرون إليَّ، كأني أبٌ أضاع طفلته، تعبتُ، بدأتُ ألهث، أخذتُ أمشي، مشيت، مشيت نصف ساعة.

هل كانت هي حقيقة، هل كانت تشبهها؟ يئست.

أخذت سيارة أجرة، إلى حرستا، لا أعرف كم دفعت للسائق.

١١

عند الكراج، شدَّني من يدي رجل ينادي:

- راكب واحد إلى حلب، راكب إلى حلب.

قادني إلى مكتب، دفعت ثمن تذكرة، كان أقل من ثمن تذكرة الذهاب، أقل منه بكثير، تقريبًا نصف ثمنها، حمدت ربي أن ما معي كان يكفيني، توجهتُ إلى البولمان، انتظرت ساعة ونصف الساعة حتى فتح الباب، وبدأ الركاب بالصعود، كان رقم مقعدي ٢٦، قبل الأخير بمقعدين، بولمان قديم، مقاعده ممزقة، قذرة.

بعد مغادرة دمشق بأقل من ربع ساعة، توقف عند حاجز، جمع المعاون بطاقات الهوية، عشر دقائق، ويصعد المعاون ويهتف باسم: حامد محمد محمود، وينهض رجل في الأربعين، وينزل من الحافلة، ألتفت إلى الراكب بجواري، أسأله بعفوية:

-لماذا دعاه المعاون؟

-مطلوب، إما عليه خدمة احتياط، أو... الله أعلم.

-وهل يطلب للاحتياط من بلغ الأربعين؟

-الكل مطلوب للاحتياط، حتى أنت.

أهم بالكلام، لكن الراكب بجواري، يسند رأسه إلى مسند المقعد، ويغمض عينيه، أفهم أنه لا يريدني أن أتكلم.

نعم، هكذا سمعت، والآن رأيت، اخترعوا قصة الاحتياط، حتى لمن تجاوز الأربعين، أو ادفع أربعة آلاف دولار، جديدة، غير ممزقة، ولا ختم عليها، ولا توقيع.

ويصعد المعاون، يعيد البطاقات، وتنطلق الحافلة، صوت المحرك يصم الآذان.

حامد محمد محمود لم يرجع، لم يصعد إلى الحافلة، هممت بسؤال المعاون عنه، لكن عرفت أنه لا فائدة من السؤال، فهو نفسه لا يعرف الجواب، ولا أحد يمكنه أن يعرف الجواب.

تنبهت إلى البيوت الواقعة على يمين الطريق، ونحن في طريق العودة إلى حلب، دمار شامل، قرية قرى بلدة، لا أعرف، دمار على عمق عدة كيلو مترات، ألتفت إلى الراكب بجواري، أسأله:

-ما هذه البلد.

يصلني صوته وهو مغمض العينين، كأنه يلقمني قطعة حجر:

-لا تسأل، هذه حرستا دوما القطيفة، لا أعرف.

أكاد أسأل ومن دمرها؟ واضح أنها مدمرة من فوق بالقنابل والصواريخ من الطيران، بل بالبراميل المتفجرة والحاويات، هذه كلفتها أقل، صناعة محلية.

بعد أقل من ساعة، توقَّف عَمَلُ المكيف، شمس أواخر أيار حارقة، صيفنا بدأ باكرًا، ضجَّ الركاب، قال لهم المعاون:

- المكيف تعطّل.

ثم أسرع المعاون إلى فتح كوتين في سقف البولمان، وبدأ الهواء يتغلغل في الحافلة، مصدرًا زعيقًا كأنه الولاويل، ضج بعض الركاب، يطالبون بإغلاق الكُوَّتَيْن، أغلقَ واحدة، وترك الأخرى.

كانت هذه الكوة من نصيبي، فوق رأسي، الهواء ينفخ في رأسي، ويسدّ أذني.

بعد مغادرتنا حماه، تعطل البولمان، توقَّف، لا نعرف لماذا، نزلنا إلى الفلاة، ننتظر، انتظرنا نصف ساعة حتى مرَّ بولمان آخر، نزل سائق هذا البولمان مع المعاون، وبدأ العمل على تصليح المحرك، لا نعرف ما هو العطل، ولا نعرف كيف تم التصليح؟

كان السائق يقود ببطء شديد، كأنه يمشي على ثلاث عجلات لا أربع.

يمر بي المعاون، أسأله:

-أين وصلنا؟

يشير بيده إلى الجهة اليسرى، ويقول:

-معرة النعمان.

أمد عنقي، أحاول النظر من النوافذ في الجهة اليسرى، يا إلهي، ما هذا الدمار؟ أين البشر؟

قبل معرة النعمان رأيت على الطرفين قرى كثيرة، بيوتها متناثرة، ولكن لا حياة فيها، بيوت ريفية بسيطة، بعضها مدمر، وبعضها انتزعت أبوابه ونوافذه، البيوت كأنها جماجم مفرغة العيون، كأنها مُعَدَّة لتصوير فيلم سينمائي، أين البشر؟ لا أعرف؟ ماتوا هاجروا هُجِّروا؟ لم أستطع السؤال عن القُرى، الراكب بجواري يتظاهر بالنوم، والمعاون بعيد، يقعد بجوار السائق.

تذكرت، مرت بنا في الذهاب سيارات شحن كبيرة، محملة بمخلفات الأحياء المدمرة في حلب، أبواب حديدية، ونوافذ، وأطباق فضائية صدئة، وأسياخ حديد مستلة من أنقاض العمارات، يعدونها غنائم حرب، هناك فيما يبدو في دمشق أقيمت معامل لصهر هذا الحديد.

وتتوقف بنا الحافلة، وتطول بنا الوقفة، ألتفت إلى الراكب بجواري، أتكلم بصوت منخفض، كأنني أكلم نفسي، كأني فقط أبث شكواي:

-ما هذا الحاجز؟ هل هو الأخير؟

يبدو أنه سمعني، يعلق:

-هذا أصعب حاجز، بقي ربع ساعة، وندخل حلب.

هل أنا مطلوب؟ والله ساعتها خشيت أن أكون مطلوبًا، ليس عليَّ احتياط، أنا وحيد، لم أؤد الخدمة الإلزامية، مرة مازحني أبو سعيد، قال لي: "سيُدْعَى إلى الجيش كل الوحيدين"، وصمت ثم أضاف: "لا تخف، هي دورة تدريبية، لستة أشهر فقط".

الراكب إلى جوار ي يزفر، يرسل نفخة طويلة، يلتفت إلي يتكلم:

-هل رأيت في حياتك مثل هذا الحاجز؟ كأننا نجتاز حدود دولة، ما معنى هذا التوقف؟

أتردد، لا أعرف ماذا أقول، أخشى أن يكون هو نفسه من عناصر الأمن، كل شيء متوقع، أصمت.

لا أنسى جلال، مر فترة طويلة لم يزرني فيها، قبل مجيء عفاف كان كل أسبوعين أو ثلاثة يمر بي، يأخذ علبة سمنة، أو ليتر زيت، أو كيس مسحوق غسيل، أول مرة طلب علبة سجائر، لا أعرف كيف دخل عليَّ، وبنبرة حادة قال لي: "ناولني علبة حمراء قصيرة"، كانت سجائر الحمراء مفقودة، وأنا في الأساس لا أبيع سجائر، قلت له: "لا أبيع السجائر"، نظر إليَّ وكأنه لم يصدِّق، ثم قال: "هات علبة سمن"، ورمى إليَّ عشرة آلاف ليرة، عرفت أنه عنصر أمن، قلت له: "هات عشرين ومسامح بالبقية، والله رأسمالها أكثر من اثنين وثلاثين ألف ليرة"، قال: "سجل البقية في الدفتر، الشهر القادم أدفع لك"، قصة طويلة، وظل يأخذ ويدفع خمسة آلاف أو عشرة، مرة أخذ ليترين زيت ويدفع ألف ليرة، قال: "أنا أحميك من كل الدوريات، أنا مسؤول عن هذه المنطقة كلها"، منذ مجيء عفاف ما رأيت وجهه، آخر مرة قلت له: "ما عندي لا سمن ولا زيت ولا مسحوق غسيل، ما عندي أي شيء، هذه البضاعة كلها أمانة"، كان على المنضدة أمامي صندوق فيه قداحات صينية، مد يده، وأخذ قداحة، وقال: "سآخذ هذه القداحة، لا تنس، سجلها في الدفتر".

بعد خروجه دخل صديقي أبو سعيد، سألني:

-هل كان عندك جلال؟

لم أكن أعرف اسمه، سألته:

-من جلال؟

-هذا الرجل الذي خرج من محلك، أنا رأيته وهو يخرج من محلك.

- نعم، كان عندي.

-هل أزعجك؟

وحكيت له عنه، فقال لي:

-لن ترى وجهه بعد اليوم، أنا سأكلمه، هؤلاء دائما يترددون إلى محلي.

ترى هل هو وراء رميي هنا في الأمن الجنائي؟ يومها خشـيت أن يكون قد أخذ القداحة ليحرق الدكان، أو يحرقني، وإلا فما معنى أن يأخذ قداحة لا قيمة لها؟

أبو سعيد طمأنني، ولكن في الحقيقة لم أطمئن، يومها عرفت، قلت في نفسي: أبو سـعيد منهم، البلد كلها مزروعة بهم، صـرت أحسـب ألف حسـاب، حتى أبو سعيد، بدأت أحذر منه.

غادرنا الحاجز، وبعد أقل من عشـر دقائق، انعطف السـائق، ليدخل إلى محطة وقود، ليملأ الحافلة بالمازوت.

أراد بعض الركاب النزول، لكن السائق أغلق باب الحافلة.

أكثر الركاب أشـعلوا سـكائرهم، عيناي تمتلئان بالدمع، وأحس فيهما بشـعلة نار.

كانت رحلة بائسة.

هل أحدث الأصـدقاء هنا في هذه البئر عن دمشـق؟ وعن رحلة الذهاب وعن رحلة الإياب؟ عن رحلة العاشق الحيران؟

١٢

وصلتُ إلى المحل قبل العصر، مرهقًا، متعبًا تعبًا لم أذق مثله من قبل.

لمحت زوجتي واقفة في الشرفة، والبنات معها، كأنها كانت تنتظرني.

ما إن دخلت إلى المحل، حتى دخلتْ زوجتي والبنات.

زوجتي تمسك بيدي الاثنتين تقبّلهما، تلثمهما، أنفاسها حارة، الدموع تنهمر من عينيها.

-ليلة أمس لم ننم، ونحن في الشرفة، الباب الحديدي للمحل مغلق، شغلتَ بالنا، قلقنا عليك، أين كنت؟

نظرتُ إلى البنات.

ختام في الثانية من عمرها، أصرَرْتُ على تسميتها ختام، أريدها الختام، كانت الأم تريد تسميتها منى، مها في الرابعة، ماجدة في السادسة، لم تدخل المدرسة بعد، ميادة في الثامنة، في الصف الثاني، عفاف كانت تُعنى بها أيما عناية، أوصت بها كل المعلمات، هي الأولى في الصف.

وردات مثل الفُلُّ، امتلأت عيناي بالدموع.

بابا، أحلى كلمة أسمعها منهن، أصواتهن تغريد كناريات، الكناريات الإناث لا يغرّدن، الذكور من الكناري وحدَها تغرد، بناتي يغرّدْن.

حنجرتي تكاد تتكسَّر مثل الزجاج، لم أتكلم، طال وقوفهن، جاء ابني منير، يداه ملوثتان بالشحم والزيت، أكبَّ على يدي يقبّلها.

- بابا، الحمد لله على السلامة، أين كنت؟

آه يا منير، ليتك كنتَ معنا لتصلح البولمان العتيق المهترئ، آه لو ترى والدك، ها أنت ذا تراه.

زوجتي تلحُّ علي، تسأل:

-خبرنا، ما سر هذا الغياب؟ أين كنت؟

أقولها بصراحة مطلقة، كأنني أسقط عن ظهري صخرة:

-سافرت إلى دمشق.

أهم بالمضي إلى عمق المحل، وأنا أقول بحزم:

-لا تسألوني بعدها أي سؤال.

زوجتي تتشبث بيديَّ، تكب عليهما مرة ثانية، تقبلهما، تتوسَّل:

- الحمد لله على سلامتك، والله لن نسألك، لكن، أرجوك، اصعَدْ إلى الشقة، لا مِن أجلي، مِنْ أجل البنات.

صوتها حنون، دافئ، كأنه صوت أمي.

فمها دافئ، وهي تقبل يديَّ الاثنتين، تلثمهما، أنفاسها نار.

تتكلم بحنان:

-الحمَّام جاهزة، اصعد، استحم.

- اتركوني ساعتين من الزمن، أنا بحاجة إلى النوم، اسبقوني، سألحق بكم بعد العصر.

زوجتي استبشرتْ، أضافت بفرح:

- هيا يا بنات، سنسبقك، سأصنع لك كبة بالصينية، أنت تحبها.

في الباب، تلتفت:

-ياسر، لا تتأخر، هل هذا وعد؟

-لا أعرف.

ترجع، تنظر في عيني:

-لن أصعد، سأبقى معك، أنام هنا، على الأرض، تحت قدميك.

أهم بالالتفات إليها، أعرف أني إذا التفت، فسوف أضعف، من غير أن ألتفت، أقول:

-اسبقيني، سألحق بك.

-هل هذا وعد؟

- لا أعرف.

صَـــعدَتْ هي ومنير والبنات، على أمل أن أكون معهم بعد ســـاعة، وها أنا ذا الآن معكم، هنا في هذه البئر، ولا أسميها إلا البئر، بئر يوسف.

١٣

أستلقي على فراشي في عمق المحل.

أسمع أصوات خبطات على باب.

هل غفوت؟ هل هو حلم.

خبطات بيد على باب، هو باب شقة عفاف.

أنهض، أقفز إلى باب المحل، أهم بالخروج، يظهر أمامي الدكتور ذهب، لا أعرف كيف ظهر، كأنه شق الأرض وخرج.

يسالني:

-أين عفاف؟

-لماذا تسأل؟

-عفاف حبيبتي، خطيبتي، أريد رؤيتها، المدرسة مغلقة، وليست في الشقة، صعدت إليها، قرعت الباب، تنصتُّ، ليست في الداخل، أين عفاف؟

أضحك، أقول له ساخرًا:

-عفاف سافرت إلى دمشق، أنا سافرت إلى دمشق وبحثت عنها، فلم أجدها، اذهبْ أنت، ابحثْ عنها، قد تجدها، لعل حظك منها أفضل من حظي.

-تسافر أنت وتبحث عنها؟ عفاف لي أنا، سأشكوك إلى أبي.

كنت إذا مر أمامي أضحك، لكن هذه المرة اقشعرَّ بدني، فار دمي، أحس بالشوك في حلقي، أخذت قطعة من الحلاوة بالطحينية، ابتلعتها.

لماذا أخبرته أني سافرت إلى دمشق؟ ولماذا قلت له سافرت للبحث عن عفاف؟ ما هذا الجنون؟ انقلب مزاجي كله، لن أصعد إلى الشقة.

بعد دقائق، دخل أبوه، وقف أمامي، بيننا طاولة عليها الحلاوة، قال وهو يمدّ صوته ساخرًا:

- الحمد لله على السلامة، سمعتُ بسفرك إلى الشام، لحقتَ بعفاف تبحث عنها؟

صمتَ، هزّ رأسه، وقال مؤكدًا، وهو يكزّ على أسنانه:

- ليكنْ في علمك، عفاف خطيبة ابني، ولنْ تصلَ إلى ظفر في إصبعها.

صحتُ به:

- اخرسْ، أنت وابنك، اسكتْ، وإلّا قطعتُ لسانك.

ولوَّحْتُ بالسكين أمام وجهه، لا أعرف كيف حملتُها، السكين التي أقطع بها الحلاوة، كانت أمامي على المنضدة، رفعتها، لوَّحت بها أمام وجهه.

خرج، هبط على الدرجات الثلاث أمام المحل، وأظنّه تعثر، ندمتُ، هممتُ بالخروج من المحل لأطمئن عليه، لكن رأيته من وراء الزجاج، وهو ينهض، ويمضي، مثل العفريت، وهو يشير إليَّ بيده، ويتوعَّد.

أظن سمعته يقول:

- رح تشوف.

أخطأت، أنا أخطأت، أخذتُ الموضوع على مَحْمَل الجِدّ، مَن هو الدكتور ذهب ومَن هو أبوه حتى يخطبها لنفسه؟ كان الأفضل لو أني سخرت منه، كان عليَّ أن أقول له مبارك عليك وعلى ابنك، اذهب واخطبها، لا أعرف أسلوب السخرية والتهكم، هذا هو طبعي.

جاري أبو حسن، النجار، يأخذ الأمور كلها مأخذ السخرية والتهكم، ولا ينفعل، مرة ذهب إلى صلاة العصر في الجامع، الصلاة لا تستغرق أكثر من ربع ساعة، رجع من الصلاة، عنده ثلاث مطارق، من حجوم مختلفة، وجد إحدى المطارق مسروقة، تذكَّر، أغلق الباب الزجاجي إغلاقا فقط، ولم يقفله، نتيجة السرعة، حكى لي ذلك هو بنفسه، ضحك، ولم ينزعج، قال: أحد الجيران احتاج إلى مطرقة، فدخل المحل واستعارها، إذا رجّعها فأنا له من الشاكرين، وإذا لم يرجعها سامحه الله، حكى لي ذلك وهو يضحك.

بعد ســـاعتين، أو أكثر، بعد طردي نجدة، الآن تذكرت، وقفتْ أمام المحل سـيارة، وإذا أنا هنا معكم، في قاع البئر، هل أحكي لكم عن المجنون الدكتور ذهب؟ عن والده؟ عن عفاف؟

عفاف ضاعت، وأنا ضعت.

١٤

يُفتح باب الزنزانة، رجل يرمي لنا ربطة خبز، وصينية فيها برغل.

- هذا عشاؤكم.

إسماعيل يلتفت إلي، أكبرنا سنًّا، يكلِّمني، وهو يضحك:

-نحن هنا نعرف الوقت من خلال الطعام، العشـــاء يقدم لنا في الثامنة ليلًا، والإفطار في الثامنة صباحًا، والغداء في الثالثة، توقيت ثابت، ومنضبط.

مطيع يضيف وهو يفتح ربطة الخبز ويلقي لنا بالأرغفة:

-أجمل شـيء هنا هو الخبز، يصـلنا بالراحة، ولا نقف بالدور ثلاث سـاعات أمام كوة الفرن.

لو تركوا معي هاتفي الجوال كنتُ اتصلت بعفاف، مديرة قدّ الدنيا، تستطيع من غير شك إخراجي من هذه البئر، لكن تذكرت، ليس عندي رقم هاتفها، في دمشق سخر مني الحارس في وزارة التربية، قال لي اتصل معها بالهاتف، قلت له: "ليس معي رقم هاتفها"، سأبقى هنا شهرين، لا أعرف متى يأتي دوري في التحقيق.

هناك غرف أخرى، لجرائم أكبر، هكذا قال لي أصدقائي في هذه البئر، صاروا أصدقاء لي، هم طيبون.

إذن السـاعة الآن الثامنة، وأنا وصـلت إلى هنا في الرابعة، أربع سـاعات مرت فقط، لا أصدق، عمري كله استرجعتُه في أربع ساعات.

متى سـيكون التحقيق معي؟ نفدت ذخيرتي من الذكريات، ماذا سـأتذكر بعد ذلك؟ استرجاع الماضي حلو، حتى في هذه البئر حلو، عشت فيه مع ذاتي.

لا ملاعق، نغمس البرغل بالخبز، أكلتُ كثيرًا، أكلتُ بشهية، ثلاثة أيام لم آكل فيها، سهر، سفر، تعب، قهر، خجل، عذاب.

البرغل مطبوخ بطريقة جيّدة، أحببتُه، آكل بنهم، لا أعرف لماذا أحببته؟ هل هو الجوع أو التعب أم لأني منذ أشـهر لم ينزل إلى معدتي غير الحلاوة؟ فور خروجي من الأمن الجنائي سـوف أطلب من زوجتي أن تطبخ مثله، هل قلتُ زوجتي؟ سـأطبخ مثله أنا بنفسـي، سـأشـتري موقد غاز، وأصـنع في العمق من المحل ما يشـبه المطبخ الصغير، لماذا لم أفكر في هذا طوال الأشهر الثمانية الماضية؟

الطعام ملأ معدتي، تعبتُ، نعستُ، كأني غفوت، وأنا قاعد.

يفتح باب الزنزانة، ويطل وجه الحارس، صرت أعرفه:

- ياسر عبد الله، تفضل معي.

تنتابني قشـعريرة، ماذا؟ أحس بدهشـة، لا أعرف؟ أندفع نحوه، يقودني في الممر، إلى غرفـة في آخر الممر، الغرفـة مضـاءة، فيهـا ثلاثـة حراس، يـدعوني إلى الدخول، أدخل، في الغرفة أربعة أسرة، وفي الوسـط طاولة، وكؤوس شـاي، وصينية فيها كبة.

تنهمر الدموع من عينيَّ، أمسـحها، لكنها تنهمر، هي رَمَتْ بي هنا، ثم أشـفقتْ علي، فأرسلت لي الكبة بالصينية .

يقول أحدهم:

- تفضل تناول طعامك.

كنتُ قد تناولت من البرغل أكثر مما توقعت، ربما في حياتي لم أتناول من البرغل والخبز مثلما تناولت، لا مجال الآن لتناول شيء.

تناولت قطعة كبة، قطعة صـغيرة، غُصّ بها حلقي، لم أسـتطع بلع اللقمة، ناولني أحدهم كأس ماء.

ناولني آخر صرة، وقال:

- هذه بيجاما، وثياب داخلية، ومنشفة.

سألت بعفوية:

- هل ستطول إقامتي عندكم.

تنصبُّ عليّ تعليقاتهم، تعليقات لطيفة ناعمة:

- هل مللتَ منا؟

- هل أزعجناكَ؟

- وضعناكَ في أفضل غرفة، مع رجال محترمين، هناك غرف أُخرى فيها شباب ورجال تُهَمُهُم كبيرة.

أبتلع لقمتي، أغص.

يسألني أحدهم:

- هل تعرف الرائد عمر، الضابط في الشرطة؟

- نعم، هو عديلي، زوج أخت زوجتي.

- هو الذي أحضر لك صرة الثياب والطعام.

علقت:

- شكرًا لكم، اسمحوا لي بالعودة.

قال أحدهم:

- اشرب كأس شاي.

اعتذرت إليهم، قلت لهم:

- لا أشتهي شرب أي شيء، سأعود إلى أصدقائي في الغرفة، من غير المناسب أن أشرب الشاي أنا هنا وحدي، حتى إني لن أقول لهم إني تناولت قطعة كبة، أعرف أنه من غير المسموح إحضار الطعام للموقوف عندكم.

نهضت، حملت صرة الثياب، ألتفت إليهم أسألهم:

-هل سيصدر عفو عام؟ هكذا سألني كل الموقوفين في الغرفة، فور دخولي عليهم.

يبتسم أحدهم، يتكلم بهدوء موضحًا:

-العفو يشمل المحكومين بأحكام معينة، أنتم غير محكومين، العفو، ولو صدر، لا يشملكم، أنتم موقوفون رهن التحقيق.

رجعت، وأنا منكســر، أحس بالذل والهوان، أنَّهم زوجتي بأنها رمت بي هنا في فرع الأمن الجنائي، وهي تسأل عني، وتطلب من عديلي المساعدة، وتهتدي إلى مكاني، بعد أقل من أربع ساعات، وترسل لي الطعام الذي أحبه وأشتهيه، كيف اهتدت إلى مكاني؟ لكن، ليس من المستبعد ذلك، لعلها ندمتْ على ما فعلتْ وتريد التكفير عن ذنبها.

أدخل إلى الغرفة.

يعلق أحدهم:

- وراءك شخص كبير صاحب نفوذ، هو الذي دعمك.

- أنت لا تعرف، من غير المسموح إرسال أي شيء إلى الموقوف، إلا بعد نقله إلى السجن، هناك يمكن أن يزوره أهله، ويعطوه الثياب والطعام والمال.

لو كانت عفاف هنا ما كنت بقيت ساعة في هذه البئر، أين أنت يا عفاف؟ كيف أضعتك؟ لماذا لم أتحرش بك؟ ليتني تحرشت ودخلت إلى السجن، ولو حُكِمْتُ بالمؤبَّد، أعرف، كنتِ ستتوسطين للعفو عني وإطلاق سراحي.

زوجتي لا تستطيع فعل شيء، زوجتي حكمتني بالمؤبد، هذا الطعام لا يعني أي شيء، ولا صرة الثياب، الناس يطعمون الكلاب والقطط الضالة في الشوارع.

يزداد إحساسي بالخيبة والانكسار، أخجل من نفسي، لا أستطيع أن أكلمهم لا عن عفاف ولا عن زوجتي، وهم الذين قالوا:

- نهنئك بهذه الزوجة الوفيَّة، تسأل عنك، وترسل إليك الثياب.

لو كانت حقًّا وفية لَسَعَتْ إلى إخراجي، إرسال الثياب يعني أنها تريد لبقائي هنا أن يطول.

والطعام لا قيمة للطعام، تركته للحراس، ليتني لم أذقه.

مع عفاف بدأت حياتي، كيف بدأت لا أعرف، وكيف انتهت هكذا فجأة لا أعرف.

١٥

كلهم حدَّثوني عن جرائمهم، عن التُّهَم الموجهة إليهم، إسماعيل، أكبرنا سنًّا، في الخمسين من عمره، موظف، متّهم بأخذ رشوة من مواطن، رشيد في الأربعين، باع المازوت بزيادة على السعر المحدد، حامد صيدلي، شاب، في الخامسة والثلاثين، عنده أدوية معروضة للبيع على الرغم من مُضِيّ خمسة أشهر على انتهاء صلاحيتها، مطيع سائق سيارة أجرة، في الثلاثين، تحرش بسيدة كانت راكبة معه في السيارة.

ما جريمتي؟ ما تهمتي؟ والله لا أعرف، لن يصدقوني، كان على الرجلين اللذين اعتقلاني أن يبلغاني التهمة، وكان عليهما أن يسمحا لي بالاتصال بزوجتي، وأن أخبرها إلى أين سيمضيان بي، هكذا أكد لي هؤلاء الأصدقاء، هو تصرف فردي من هذين الرجلين.

غفوت، أو أظن أني نمت، لكن لا أعرف كم ساعة نمت، قال لي مطيع:

- نمتَ جيدًا، واسترحت.

كلهم كانوا يقظين.

إسماعيل، وهو الأكبر في المجموعة، سألني بعفوية ومرح:

- هل أنت عاشق؟

دهشت، لم أتكلم.

قال:

- تكلمتَ في نومك بكلام غير واضح، كأنك قلتَ: وين المديرة؟

يضيف مطيع سائلًا، وهو يضحك:

- لعلكَ تحرَّشْتَ مثلي بواحدة؟

حقيقة أنا عاشق، وليتني تحرَّشْتُ بها، المجنون الدكتور ذهب هو الذي تحرش بها، تذكرتُ، لعلي قلت: "وين المديرة؟" كان حلمًا، تذكرت، وجدتني في قرية،

لا أعرف اسمها، بيوت طينية، لكنها جميلة، أشجار تظللها، دخلت إلى مدرسة، أو ما يشبه المدرسة، أمسك بيدي اليمنى ولدًا أشقر يسير إلى جواري، يخرج من غرفة رجل، كأنه يقول لي: "هذا يشبهك، نعم، ولا يشبه زوجتك، أنا أعرف زوجتك"، ثم يضيف: "انتهى تسجيل الطلاب، ارجع العامَ القادم"، أشعر بالضيق، أكاد أختنق، كأني أصيح: "وين المديرة".

يقول لي مطيع السائق:

- قصَّ عليَّ حلمك، أنا أحبُّ تفسير الأحلام.

أتردَّد، يلحّ علي، يريد إخراجي من صمتي، أحكي له عن الحلم.

يقول:

- أنت تريد الخروج مِن واقعك، تريدُ الهرب إلى الريف، وتحلم بحياة جديدة، مع امرأة جديدة، بدليل وجود الولد الذي يشبهك، ولا يشبه زوجتك، وتحلم بمستقبل، تريد لابنك التعلُّم، لكن لا أعرف لماذا تسأل عن المديرة، كأنك لم تصدق أنه هو المدير، لعلك تحسُّ بالزيف والكذب الشائع في مجتمعنا.

أقول له:

- صدقتَ، كنتُ طفلًا، أمسكتْ أمي بيدي، وذهبتْ بي إلى مدرسة ابتدائية، مختلطة، فيها مديرة ومعلمات، معاون المديرة رجل، أتذكر، خرج معاون المديرة، وقال: "لا يوجد عندنا أماكن"، سألته أمي: "وين المديرة؟"، أمي كانت تعرف المديرة.

مطيع يعلق:

- الحلم الذي رويته يختلف، لا علاقة له بهذه الحادثة التي جرت معك وأنت طفل، الحلم مختلف، عندك شيء تخفيه.

هل أحدثه عن عفاف، ودمشق؟

١٦

فُتِح الباب، رمى لنا رجل ربطة خبز، ناولنا صحنًا عميقًا فيه جُبْنٌ سائل، وصحنًا آخر فيه مربى المشمش المطحون، ضحكتُ، لم أصدق، نحن هنا موقوفون، متهمون، ربَّما مجرمون، ويُقدَّم لنا المربَّى والجبن؟

أظنه صباح يوم الجمعة، لأني اعتقلت بعد عصر يوم الخميس.

زادتْ بعض الأرغفة، وبقي في الصحن قليل من الجبن السائل، المربى نفد، إسماعيل أكبرنا سنًا، وجسمًا، مسح صحن المربَّى بقطعة خبز كبيرة، لم يترك في الصحن شيئًا.

تناولتُ بضع لقيمات، وتراجعت، المُرَبَّى حُلْوٌ شديد الحلاوة، حتى إنه لاذع.

قال لي الصيدلي:

- بنيتك ضعيفة، يجب أن تأكل، أمامنا أيام، لا نعرف متى يأتي دورنا في التحقيق، علينا أن نُعْنَى بأنفسنا.

وصمت، ثم أضاف يسألني:

-هل تعاني من السكري؟

-لا.

-كم نسبة السكر في دمك في آخر تحليل؟

-لم أحلل.

-أنت تعاني من ارتفاع في نسبة السكر في دمك، وتعاني من نقص الكولاجين، جلدك جاف ومتغضن، وليس تحت جلدك عضلات، بعد خروجك بالسلامة، تناول اللحوم والعدس، اسلق اللحم وتناول الحساء...وتفضل بزيارتي في الصيدلية، سأعطيك أدوية مقوية ومنشطة.

طوال عمري لم أحلل الدم، ولا أعرف زمرة دمي، ولا أتناول الدواء، ترتفع حرارتي، أتبع حمية، في أسوأ الأحوال أتناول حبة أسبرين أو حبة سيتامول، منذ صغري لا أحب الطب ولا الأطباء، وفي الكبر ظهر لي الدكتور ذهب، فزاد من كرهي للطب والأطباء.

يتكلمون، يثرثرون، لا يتركون لحظة تمر في صمت، لا أعرف كيف يواتيهم الكلام، يتحدّثون عن كل شيء، إسماعيل حدثنا عن مديره المباشر، وعن مدير مؤسسته، حكى لنا عن الموظفين، اعترف أنه كان لا يتردَّد في قبول ما يُعطيه المواطن أي مبلغ من المال، ولو كان بسيطًا، لكنه أكد أنه كان يقبل ذلك بعد إنجاز المعاملة، يعدُّ هذا المبلغ هدية، لكن لا يقبل أَخْذَهُ قبْلَ إنجاز المعاملة، لا يعرف حقيقة الوشاية التي قادت به إلى الأمن الجنائي، ربما مديره المباشر هو الذي وَشَى به.

رشيد تكلم، فقال:

- ربحي في الليتر من المازوت قليل، وما يتسرب من الخرطوم هو هدر على حسابي، أنا أبيع بخسارة، إذا لم أغش.

وتكلم الصيدلي:

-كثير من الأدوية لا ضرر في استعماله بعد التاريخ المعلن عن انتهاء المفعول، ولا سيما الأدوية الداعمة، مثل الفيتامينات، والمسكنات، هذه لا ضررَ في تناولها بعد انتهاء مدة الصلاحية، ولو بثلاثة أشهر، وحتى بعد سنة، طبعًا بعض الأدوية لا يجوز تناولها بعد تاريخ انتهاء الصلاحية، ولا سيما أدوية القلب، ونحن نتلف هذه الأدوية.

دعانا الصيدلي إلى إجراء بعض التمارين الرياضية، ضحكتُ، في رقعة الشطرنج الصغيرة، هنا في هذه البئر، سنجري التمارين؟ لكنه الحقيقة أدهشني، حقيقة هناك تمارين مفيدة، نجريها واحدًا بعد الآخر، ليس بالضرورة أن نجريها كلنا معًا.

علَّمَنَا أولًا كيف نتنفَّس من الأنف، ونرسل الزفير من الفم، ثم ذكَّرنا بالمراوحة في المكان، وببعض الحركات الرياضية التي كنا نمارسها في درس الرياضة، ونحن في الابتدائية، دعانا إلى ممارستها، واحدًا بعد الآخر.

عرف طبيعة عملي، قال لي:

- ستصاب بالدوالي في ساقيك وفي الخصيتين، بسبب وقوفك الطويل في المحل، الرياضة ضرورية بالنسبة إليك.

ثم التفت إلى السائق مطيع، وقال له:

- أخشى أن تصاب بانقراص الفقرات في ظهرك، أو بالفتق اللبِّي، لطول قعودك وراء المقود، ولا سيما إذا عملتَ لساعات طويلة في طريق السفر بين المحافظات، وحملتَ حقائب المسافرين، ووضعتَها في صندوق السيارة، عليك بالمشي كل يوم نصف ساعة على الأقل.

تذكرتُ عفاف.

بعد انصراف الطلاب كانت تفتح أبواب المدرسة لأولاد الحيّ ليلعبوا في باحة المدرسة، وتعطيهم كُرَات السلة والقدم، في عطلة منتصف العام الدراسي لم تسافر إلى أهلها في دمشق، كنتُ أراها كلَّ يوم تغادر العمارة كعادتها إلى المدرسة.

في عطلة منتصف العام الدراسي رأيتُ أشجارًا تنهض في المدرسة، تحيط بالباحة من ثلاث جهات، تمنح الأطفال الظل.

حدثني أبو سعيد أنها وضعت مقاعد حجرية على أطراف الباحة من الداخل، في ظل الأشجار، ليلعب من الأطفال مَن يريد اللعب، وليستريح مَن يريد أن يستريح، وفرشت أرض الباحة في المدرستين بالعشب البلاستيكي.

قلت له :

- لكن ما رأيت أمامي شاحنات، ولا رأيت أيَّ عامل، هل الجن هم الذين سُخِّرُوا لخدمتها؟

ضحك، أجابني، قال:

- لم تُغْلق باب المدرستين المطلّ على الشارع الرئيسي، تركَتْه لهذه الأمور، مِن الباب المُطِلّ على الشارع الرئيسي كان العمال يدخلون، عدا ذلك، طَلَتْ جدران الصفوف باللون الزهري الفاتح، بدلًا من الفضي الكئيب، وأصلحت المقاعد، ووضعت سبُّورات ثنائية متحركة حديثة، هذا المشروع تعهدتُه أنا، ثم كلَّفَتْنِي بشراء بدلات وأحذية رياضة لكل الطالبات والطلاب، عَرَفَتْ أن سكان حي صلاح الدين فقراء، لا يستطيعون شراء هذه الأشياء لأولادهم، واشترت من اتحاد الكتاب ومن وزارة الثقافة ومن عدة دور نشر مئات الكتب، زوَّدتْ بها المكتبة في المدرستين، هذه هي المهمة التي جاءت لأجلها، هي ليست مديرة، فحسب، هي مسؤولة عن التنمية البشرية.

سألته:

-ومن يدفع تلك المصاريف والنفقات؟

أجابني:

-قلت لك من قبل، المنظمة العربية للتنمية البشرية التابعة لجامعة الدول العربية، هي التي تتكفل بتغطية هذه النفقات.

لا أعرف كيف يمر الوقت، وهم يثرثرون، وأنا عقلي يثرثر، لا أستطيع إيقاف عقلي عن الثرثرة.

١٧

غابت الشمس، وياسر لم يصعد، ما يزال في المحل، انتهيت من إعداد الكبة بالصينية، هل يعقل أن يكون ما يزال غارقًا في النوم؟

أرسل ابني منير، ليدعوه إلى الصعود، ما أزال أنتظر.

يدخل ابني منير، وهو يلهث، عيناه زائغتان، كأن كلبًا يطارده:

-أمي، محلُّ أبي مغلق، بالباب الحديدي، وعليه القفل، سمعت صوت هاتفه الجوال في الداخل يرنّ.

-وعدني أن يلحق بنا، قال اسبقيني سألحق بك، أين سيذهب؟ وكيف يترك هاتفه الجوال في المحل؟

-أمي، هل عندك مفتاح احتياطي لقفل المحل؟

أقول له، وأنا في حيرة من أمري:

-لا شك عندنا في البيت مفتاح احتياطي، لكن، لا أعرف أين خبأه أبوك؟ وما الفائدة من فتح المحل.

-قد يكون في داخل المحل؟

-ومن يقفل عليه الباب الحديدي من الخارج؟

يعلو أصوات البنات بالبكاء، أضم البنات إلى صدري، أقول لهن:

-الخوف لا ينفع، بابا، بخير.

وألتفت إلى منير:

-منير، بسرعة، انزل، اسأل عمك أبو حسن النجار، وعمك أبو سعيد دلال العقارات، اسأل كل الجيران.

قبل العصر وصل من دمشق، ووعد أن يلحق بنا إلى الشقة، هل يعقل أن يسافر مرة ثانية، وحتى الآن لم أفهم لماذا سافر؟ وهو طوال عمره لم يغادر حلب،

ولا حتى حيّ صلاح الدين، ولا شارع المدرسة، هذا شارعنا، الذي نسميه شارع المدرسة، هل يعقل أن يسافر مرة ثانية، لماذا قال: لا تسألوني لماذا سافرت؟

يرجع منير، يتكلم وهو يلهث من التعب والخوف:

-أبو حسن النجار شاهد سيارة فضية اللون، ينزل منها اثنان من الرجال، ويغلق أبي المحل، ويصعد معهم في السيارة، أبو حسن قال: لا أعرف هذين الرجلين، وما رأيتهما من قبل في الحي كله.

-ارجع اسأل أبو سعيد.

-مررت به، وحكيت له مثلما حكى لي عمي أبو حسن النجار.

-وماذا قال؟

-يتوقع أنهما من رجال الأمن.

ياسر زوجي أطيب رجل في هذه الدنيا، طوال عمره ما غش ولا كذب ولا باع مواد مهربة، وما باع لا مازوت ولا أسطوانات غاز، ما عنده في المحل لا مُعَسِّل ولا سجائر، ولماذا يُعتقل؟ حتى في السياسة لا يتكلم، عندما كان يصعد إلى الشقة، كان يصعد بعد العاشرة، يأكل لقمتين، يتفرج على فيلم مصري قديم، وينام، أحيانًا ينام حتى قبل انتهاء الفيلم، لا يشاهد الأخبار، ولا المسلسلات، وفي الأشهر الأخيرة ما عاد يصعد إلى الشقة، يأكل وينام في المحل.

وألتفت إلى منير:

-منير، انزل اسأل الأستاذ بهجت، صاحب المكتبة، أو أبو علاء، اسأل أي واحد في الشارع.

ياسر كان إذا سمع صوت رصاص، ولو في آخر حي صلاح الدين، أسرع إلى إغلاق المحل، والصعود إلى الشقة، عنده هاتف جوال قديم، وما فيه واتس أب، ولا يعرف الفيس بوك، شارعنا الحمد لله آمن، ما مشيت فيه ولا مظاهرة، لكن للأسف قبل ثلاث سنوات نزل برميل متفجّر على البناية في آخر الشارع، الشقة في الدور الرابع دُمِّرَتْ بالكامل، الحمد لله، أصحاب الشقة كانوا قبل أربعة أشهر هاجروا إلى

تركيا، الأب والابن والأم وثلاث بنات، الولد كان طالب جامعة، اعتقل حوالي الشـهر ثم أفرج عنه، الأسـرة هاجرت فورًا، كأن شـقتهم كانت مستهدفة عن عَمْد، أنا واثقة، ياسر طول عمره ما تكلم بالسياسة.

ويدخل منير:

-أمي، أسـرعي اتصـلي بزوج خالتي الضـابط عمر، صـاحب المكتبة حكى لي، قال: دخل عليه المرض العجوز، نجدة، واشـترى منه ورقة بيضـاء، العم بهجت ما أخذ ثمنها، لكن طلب منه أن يكتب شكوى ضد والدي.

أصيح مدهوشة:

-الأستاذ بهجت يكتب شكوى ضد ياسر؟

-نعم، كتبها بطلب من نجدة، قال لي بهجت، كتب فيها: أبي هدَّد نجدة بسكين في يده، وقال له: سأقطع عنقك، وقبل أن يخرج نجدة من محل بهجت، قال لبهجت: لن يمضي ياسر العيد مع زوجته والأولاد، سأرمي به في الأمن الجنائي.

-وكيف كتب بهجت الشكوى؟ وزوجي صديقه، ولماذا لم يخبرني بهجت؟

-قلتُ لكِ: كتبها بطلب من نجدة.

هذا العجوز الخرف، وأنا لن أتركه يمضـي العيد مع زوجته وابنه، لا أعرف إذا كان عنده زوجة، أعرف ابنه الدكتور ذهب، لا أعرف من أين جاء هو وابنه، قبل أربع سـنين أو خمسـة ما كنا نعرفه، أنا سـأرمي به في الأمن الجنائي، ولن أترك زوجي ينام ولا ليلة، يجب أن يخرج ياسـر هذه الليلة، زوجي طوال عمره ما فكر في ذبح دجاجة، لا أصـدق أن يهدّد زوجي الطيب ذلك القزم نجدة بك بقطع عنقه، وأين لزوجي السـكين؟ طوال عمره ما حمل أي سـكين، ولا حتى عصـا، العجوز الخرف، يدَّعي أنـه ممرض، وهو حـارس ليلي، ويعطي النـاس الحقن، مـا بقي غير أن يجري العمليـات، وابنـه يتحرَّش بهـذه وتلـك، خـذي هـذه حبـات منع الحمـل، أنـا أراه من الشـرفة، حتى إنه لا يخجل من أن يحك كتفه بكتف امرأة، أو يلكزها بكوعه، جارتي العجوز أم صـبحي تقول عنه: "مجذوب الحي، علينا أن نتسـامح معه، هذا مِن رجال

الله، وعلينا طلب البركة منه"، أقول لها: "قصة المجاذيب ورجال الله خرافة، هذا شيطان"، الدكتور ذهب حَرَم زوجي من بيع علب السردين والتون، كان يشتري علب التون والسردين ويفتحها أمام المحل ويطعم القطط، حتى توقف زوجي عن بيع التون والسردين.

ألتفت إلى منير:

-قُلْ لي بالضبط: ماذا قال الأستاذ بهجت؟ ماذا كتب في الشكوى؟ لماذا هدَّد أبوك نجدة بقطع عنقه؟

-قال نجدة للأستاذ بهجت إن والدي يقف بين ابنه شريف وبين عفاف، يحاول منعه من الزواج منها.

زوجي يمنع شريف من الزواج من عفاف؟ أضحك، لا أصدق، وهل فعلًا كانت عفاف ستتزوج شريف؟

-ارجع واسأله، بالتفصيل، ماذا كتب؟ ماذا قال؟

ألاحظ منير يحاول التذكر، كأنه يريد أن يتكلم، ولا يريد.

-منير، تكلّم، ماذا قال بهجت؟

-قال نجدة للأستاذ بهجت: أبي سافر إلى دمشق ليقنع عفاف بعدم الزواج من ابنه شريف.

يا إلهي؟ ما هذا؟ لا أصدق؟ تناقضات ومصائب؟ زوجي ياسر يسافر إلى دمشق ليقنع عفاف بعدم الزواج من شريف؟ لا أصدق؟ وما علاقة ياسر بعفاف؟ هل هي أخته؟ هل هي ابنته؟ هل يحبها؟ هل يريد الزواج منها؟ إذا كان يريد الزواج منها فلماذا لم يتزوجها طوال الشهور الثمانية؟ أكاد أضحك، لا أصدق، ياسر يريد أن يتزوج عفاف، ويسافر ليقنعها بألّا تتزوج من الدكتور ذهب؟ أو ليخطبها لنفسه؟ ألا يعلم أن عفاف سافرت إلى مطار بيروت، ومنه سافرت إلى تونس؟ عفاف ليست في دمشق؟ هي ودَّعتني وقالت: "سأسافر إلى مطار بيروت، ومنه إلى

تونس، لن أذهب إلى دمشق، ليس لي فيها أحد"، الدكتور ذهب مجنون، وياسر أبله، الدموع تملأ عينيّ الاثنتين، أكاد أختنق، أضحك، الدموع تنحبس في عيوني.

-ماما، لا تبكي.

أضم منير إلى صدري، أمسح دموعي، أضحك، أقول له:

-لا، لن أبكي، أنا أضحك، هيا، سننزل أنا وأنت، سوف أفهم من الأستاذ بهجت ماذا كتب بالضبط.

ويرنّ هاتفي الجوال:

-أنا أبو سعيد، صديق زوجك ياسر.

-أهلًا وسهلًا.

-الأستاذ بهجت يعتذر إليك، كان سيكلّمك هو بنفسه، ولكنه جاء إلى مكتبي، وحكى لي كل شيء.

-ماذا حكى لك؟ أرجوك، وضِّح لي.

-أولًا، أنا فوجئت بسفر زوجك.

-هل سافر مرة ثانية؟

-لا.

-أين هو الآن؟ هل حقًّا اعتقله رجال الأمن؟

-انتظري، سأحكي لك بالتفصيل، قبل كل شيء اطمئني، هو الآن في الأمن الجنائي، أنا تأكدت.

-أخشى أن يُضْرَب أو يُهَان؟ نسمع الكثير عن الضرب والتعذيب.

-لا، لا، اطمئني، الأمر بسيط، تهمة بسيطة، لا يستحق عليها الضرب، نعم، يوجد عندهم ضرب وتعذيب، لكن الضرب لا يكون لأمثاله، اطمئني.

-وما تهمته؟

-تهمة بسيطة، لم تكن بحاجة للشكوى إلى الأمن الجنائي، كان يمكن أن تحلَّ فيما بيننا، أو في أسوأ الأحوال في مخفر الشرطة.

-ما هذه التهمة؟

-نجدة طلب من ياســر أن يبتعد عن طريق عفاف، لأنه يريد خطبتها لابنه شريف، قال عن ابنه شريف: "هي تحبه وهو يحبها".

- ولماذا يقف زوجي عائقًا بين شــريف وعفاف؟ ومن هي عفاف؟ هل هي أخته أو ابنته؟ وهل تقبل عفاف بشـريف زوجًا لها؟ ومن قال: إنها تحبه؟ وهل يرفع نجدة شكوى ضد زوجي لهذا السبب؟

-نجدة يدَّعي أن ياسر هدده بالسكين، وقال له: سأقطع عنقك.

-لا أصدق.

-هذه هي خلاصة شكوى نجدة ضد زوجك.

-ولماذا سافر زوجي إلى دمشق؟

-لا أعرف، لم يخبرني أنه سيسافر.

وكيف عرف نجدة أن زوجي سافر ليقنع عفاف بعدم الزواج من ابنه؟

-ياسـر زوجك هو أخبر شـريف أنه سـافر إلى دمشـق، وشـريف أخبر والده نجدة، هذا ما رواه نجدة للأستاذ بهجت.

-وهل قال زوجي ياســر لشــريف إنه ســافر إلى دمشــق ليقنع عفاف بعدم الزواج من شريف؟ هذا كلام لا يصدق.

-هذا ما قاله نجدة في الشكوى.

-سـفر زوجي لغز، لا أصـدق أنه سـافر ليقول لعفاف لا تتزوجي شـريف، ألا يعرف زوجي أن عفاف سافرت إلى بيروت؟

- أظنه لا يعرف، أول أمس الثلاثاء صـباحًا، أنا أخبرته بسـفرها، وسـأل لماذا لم تودعني، فقلت له: لا تحب الوداع، ولكن لم يسأل إلى أين سافرت؟ ظنها سـافرت إلى دمشق.

أفكر، أتكلم:

-لكنه لم يسافر فورًا، سافر فجر الأربعاء، ونام في دمشق، ورجع اليوم قبل العصر، كنا في انتظاره، ووعد أن يصعد إلى الشقة، أراد أن يستريح في المحل ساعة من الزمن، هل حصل هذا كله في هذه الساعة بين العصر والمغرب؟

-أنصح لك الآن أن تكتبي كتاب استرحام إلى الأمن الجنائي، وأن تطلبي إطلاق سراح زوجك، ليمضي العيد مع زوجته وأولاده، والوعد بمراجعة الأمن بعد العيد للتحقيق.

-شكرًا، أخي أبو سعيد، أنا لن أكتب كتاب استرحام، أنا سأكتب شكوى ضد نجدة وابنه، وأطالب بإخلاء سبيل زوجي.

-اكتبي هذه الشكوى الآن، وأنا سأحملها فورًا بنفسي إلى الأمن الجنائي.

-شكرًا، سأكتبها الآن، وسأوقعها من الجيران، من كل الجيران، سيمر ابني بك ليأخذ توقيعك عليها، أرجو أن تنتظر.

ألتفت إلى منير، أقول له:

-هات ورقة من دفترك، وهات قلمك، سأكتب شكوى ضد نجدة بك وابنه الدكتور ذهب.

طوال سنوات الدراسة، بدءًا من الصف الرابع الابتدائي، كنت أكتب أجمل موضوعات التعبير والإنشاء، وفي الشهادة الثانوية كانت علامتي في اللغة العربية خمسا وخمسين من ستين، كنت أمنّي النفس بدخول قسم اللغة العربية، لمَّا كنت في الصف الثالث الإعدادي لخصت قصة "الموسيقى الأعمى"، وأعطيتها للمدرسة، قالت لي المدرّسة: أنت ستصبحين كاتبة.

وألتفتُ إلى منير:

-خذ هذه الشكوى، واذهب فورًا إلى مكتبة الأطلال، في بداية سوق الخَضْرَاوات في شارع صلاح الدين الرئيسي، لا تخف ما بقي في الشارع قناص، راح القناص، أسرع، عنده كومبيوتر وطابعة، اطلب منه طباعة نسختين، على صفحة

كبيرة، وليترك أكثر من نصفها أبيض، سآخذ تواقيع كل الجيران، وكل أصحاب المحلات.

ياسر هجرني بعد بداية العام الدراسي بشهر أو شهرين، مع مجيء عفاف، مديرة المدرسة، أكثر من ثمانية أشهر، وهو لا ينام في الشقة، في الشهرين الأخيرين، بعد عيد الفطر، بدأ يعيد الطعام الذي أرسله إليه مع منير، لا أعرف ماذا يأكل، ابني منير قال: "بابا لا يأكل غير الحلاوة الطحينية"، الدكتور ذهب يأكل الحلاة الطحينية، تشتريها له عفاف، هكذا هي أخبرتني، وزوجي صار مثله، يأكل الحلاوة الطحينية، يقلده، هل أحبها هو الآخر، هل أبكي؟ هل أضحك؟ مجنونان، لا مجنون واحد، لا أعرف سبب هجره لي، حتى شهر رمضان أمضاه في المحل، ليلًا نهارًا، وحل عيد الفطر، كأنه لم يكن ثمة عيد، أصبح المحل بيته وسكنه ومأواه، ماذا أفعل؟ ياسر عنيد؟ لم أخطئ معه في شيء، حين أنجبت له منير، الولد الأول، جُنَّ جنونه، طار عقله من الفرح، سماه منير، كنت أتمنى تسميته عادل، باسم والدي، لكن أصر على تسميته منير، وأمه، رحمها الله، فرحت به، ربما أكثر من فرحه هو بابنه، لكنها توفيت، رحمها الله، بعد أن بلغ منير عامه الثاني، حزنتُ عليها، كانت شديدة العطف على ياسر، كانت تذهب إلى السوق وتشتري الخضروات والفواكه، ولا تريده مغادرة المحل، كانت تقعد معه في المحل تساعده، وأنا بعدها صرت أذهب إلى السوق، أشتري كل شيء، وهو في المحل، ثم جاءت البنات، الأولى والثانية والثالثة والرابعة، الرابعة أصر على تسميتها ختام، أصابتني بعد وضعها حُمَّى النفاس، وأشرفتُ على الهلاك، يريد ولدًا ذكرًا، يقول لي: "ولد واحد لا يكفي"، ياسر وحيد أبويه، يريد عشرة أولاد ذكور، كأنه لم ير مصير الذكور في بلدنا في السنوات العشر الأخيرة: القتل، السجن، التهجير، وإلى أين؟ إلى السودان، البلد الفقير، حيث لا عمل ولا شغل، ثم اشتعلت الحرب في السودان، لم يبق أمام الشباب إلا المخاطرة والسفر عبر البحر، أو دفع رشوة أربعة آلاف دولار وعبور الحدود إلى لبنان أو تركيا، أو الالتحاق بالخدمة الإجبارية، ولا يسرح الشاب إلا بعد عشر سنين، يلتحق

بالجيش في العشرين، ويسرح في الثلاثين، سن الشباب، سن العمل والإنتاج تضيع، المرأة صارت تتمنى أن تنجب ولدًا واحدًا، حتى يعفى من الخدمة العسكرية، وما ذنبي أنا، الأولاد رزق من الله.

أتصل بزوج أختي، أخبره بكل ما عرفت، ببرود يقول لي:

-اطمئني، لن يمرّ سوى يوم أو يومين، ويتم الإفراج عنه، شكوى التهديد بالكلام لا قيمة لها، يحقق معه أحد الضباط، ثم يخرج.

-أخشى أن يضرب أو يهان؟

-لا، زوجك ياسر لم يرتكب جريمة، لم يسرق، ولم يقتل، وسوف يُسْتَدْعَى بالتأكيد صاحب الشكوى، وسيحقق معه حتى قبل التحقيق مع ياسر، الشكوى هي كلام، ويعرفون أن صاحب الشكوى يبالغ، أو حتى يمكن أن يكذب، اطمئني.

-أريد أن أسألك: هل يحق للأمن الجنائي القبض على المتهم لمجرد شكوى عادية؟ وكما قلت لا بد أن يكون صاحب الشكوى قد بالغ، أو كذب.

-طبعًا، لا بد من تنفيذ الشكوى، الشكوى هي شكوى، لا يمكن رفضها، هذا واجب الأمن الجنائي، ولا يجوز التأخير، أيًّا كانت الشكوى، ولكن الحقيقة كان على هذا الرجل تقديم الشكوى إلى المخفر، ويُلقي القبض على المتهم، ويقوم رئيس المخفر بكتابة ضبط، ويستدعي صاحب الشكوى، ويحاول الإصلاح بين الطرفين، ويأخذ تعهدًا بعدم التهديد مرة ثانية، إذا كان هذا قد حصل حقيقة، وتنتهي المشكلة، أو يحال زوجك إلى قصر العدل، ويحقق معه القاضي، ويطلق سراحه، أو يحكم عليه، هذه هي الأصول، وهذا كلُّه أسهل من تقديم الشكوى إلى الأمن الجنائي، ولكن الرجل صاحب الشكوى أراد أن يجعل المشكلة أكبر، وكأنه أراد، في ظنه، أن يوقع زوجك في ورطة، لكن، صدقيني، الأمر بسيط.

أحدثه عن الشكوى التي ذهب منير ليطبعها، وأخبره أني سأذهب بنفسي إلى فرع الأمن الجنائي لتقديمها، مثلما فعل نجدة بك، فيقول لي:

-عندما تصبح الشكوى جاهزة، اتَّصلي بي، أنا سأذهب لتقديمها إلى فرع الأمن، لا تذهبي أنت.

كنت أتمنى متابعة دراستي ودخول الجامعة، ولكن ياسر أصر على بقائي في البيت، وتربية منير، ثم تربية البنات، عدة مرات صار عندي فرصة للعمل مشرفة في روضة، أضاع كل الفرص، ولم يسمح لي، في عيد الفطر زارتني عفاف، مديرة المدرسة، فوجئت بزيارتها، قدمت هدايا لكل الأولاد، عرفت أنها وراء كل هذه التغييرات في شارعنا، شارع المدرسة، عرضت عليَّ المساعدة للعمل مشرفة في روضة لا تبعد عن شارعنا سوى عشر خطوات، لطيفة ومهذبة جدًّا، وصاحبة أخلاق عالية، حكت لي، زوجها مهندس، وهي مديرة مدرسة في دمشق، أخوها اعتقل، ولا تعرف حتى الآن مصيره، اعتقل عام ٢٠١٤، بدعوى مشاركته في مظاهرة، وزوجها قُتِل، استشهد برصاصة من قناص، لم ترزق منه بولد، استشهد بعد زواجها منه بأقل من سنة، تقدم إليها كثير من الشبان، لكنها رفضت الزواج، توفي أبوها، حزنًا وكمدًا على أخيها وعلى زوجها، بعد عامين توفيت أمها، لم يبق لها أحد، بدأت تتوقع الاعتقال بين ساعة وأخرى، صارحتني بأنها تكره النظام، طبعًا ستكرهه، هذا طبيعي، شابة، ذكية، مثقفة، مثل برعم الورد، يا إلهي، كم هي ظريفة، والدكتور ذهب يأبى إلا أن ينتظرها عند باب المدرسة، ويمشي بجوارها إلى باب العمارة، أراها من الشرفة، حكت لي ذلك، وحكت لي أنها كانت تشتري له من محل زوجي رغيف خبز وقطعة حلاوة، حذرتها من التعاطف معه، قالت لي: "الدكتور ذهب جدير بالشفقة، مثل هؤلاء يجب رعايتهم، هم بحاجة إلى من يعطف عليهم"، حصل ما حذرتها منه، أحبها وظن أنها تحبه، طبعا سيحبها، مادامت تطعمه كل يوم الحلاوة، هل حقيقة سافر زوجي إلى دمشق ليقنعها بعدم الزواج من الدكتور ذهب؟ مجنون آخر، صار عندنا في الحي مجنونان، الدكتور ذهب مجنون حقيقة، وزوجي أبله، كلاهما يأكلان الحلاوة، لكن حظ الدكتور ذهب أوفر، هو يأكلها من يد عفاف، لن

أبكي، سأحرك الدنيا كلها، حتى يخرج زوجي من الأمن الجنائي، ليدخل بدلا منه نجدة وابنه الدكتور.

ويأتي منير:

-أمي، هذه ثلاث نسخ من الأستاذ هشام، صاحب مكتبة الأطلال، وهذا اسمه وتوقيعه، هو أول الموقعين، وهذا أيضًا توقيع عامل شاب عنده، كلهم يكرهون نجدة والدكتور ذهب.

-كم أخذ منك؟

-رفض أن يأخذ أي ليرة، ولكن أضاف جملة وجملتين، لا أعرف بالضبط، على الشكوى، قال: يجب أن تكون الشكوى أقوى.

وأنزل أنا ومنير، نمضي أولا إلى أصحاب المحلات.

ثم نصعد الأدراج إلى العمارات الملاصقة لعمارتنا، نأخذ تواقيع الجيران.

في الثامنة الشكوى جاهزة، أتصل بزوج أختي.

-أرجوك، إذا لم تأت أنت، فسوف أذهب أنا بنفسي.

ياسر لا يمكن أن أتخلى عنه، هو زوجي، أحبني، قبل الزواج، تزوجني عن حب، ربما أعجب بي، شابة، طالبة ثانوية، أمر أمام محله، ناهدة الصدر، أمشي بغنج، هذه هي مشيتي، صديقتي سمر تقول لي: "كيف تمشين، مشيتك تلفت الأنظار، لا أستطيع تقليدك"، وأنا أحببته، قلت: "لم ينل شهادة الدراسة الإعدادية، لكن ليست الدراسة كل شيء، لا شك أنه صاحب ذوق، ويعرف كيف يعامل الناس، فهو صاحب محل، ويعامل الناس من مختلف الأمزجة والأذواق"، أنا كنت مقتنعة، وهو مندفع، هكذا الشباب عندنا، الزواج عندهم تلبية رغبة، نحن النساء، أو أنا على الأقل، الزواج كان عندي من البدء يعني الزوج والأولاد والبيت، هكذا أنا، لا أعرف، هو زوجي، ولن أتخلى عنه، ولو هجرني، لا أنكر شعرت بالغيرة من عفاف، كنت أراها من الشرفة تعبر الشارع إلى المدرسة، خفت على زوجي، ولكن أعرف أن مثلها لن تقبل بمثل زوجي زوجا لها، وكنت على شبه اليقين بأن زوجي لا

يمكن أن يفكر بزوجة ثانية، حتى لو أنجبتُ أنا له مئة بنت، سأجهز له بيجاما وبعض الثياب الداخلية، ومنشفة، وألفها في صرة، لن يطول بقاؤه في الأمن الجنائي، لكن لا بد من هذه الصرة، ياسر، لا يمكن أن أتخلى عنه، ولو تخلى عني، عفاف في زيارة ثانية، وهي الزيارة الأخيرة، حكت لي كل شيء عن حياتها، والله أنا ما حكيت لها أي شيء عن زوجي، ولماذا أحكي لها؟ هي حكت لي كل شيء، عفاف كانت تنتظر بفارغ الصبر انتهاء العام الدراسي، لتسافر، أبو سعيد أكد أنها سافرت يوم الثلاثاء فجرًا، طبعا هي الآن في تونس، لا شك أنها وصلت إلى تونس في اليوم نفسه، هذا يعني أن زوجي ياسر سافر إلى دمشق وهي في تونس، إذًا، كان هذا السفر إلى دمشق من أجلها هي، فليسافر كما يشاء، ليسافر إلى تونس، إذا أراد، عفاف حكت لي أنها قبل سنتين قرأت في الشبكة عن منصب مديرة في قسم التنمية البشرية، في منظمة التربية وتأهيل المناطق المتخلفة، قالت لي: "مقرها في تونس، والمنظمة تابعة لجامعة الدول العربية"، عفاف متخرجة في كلية إدارة الأعمال، وحاصلة على دبلوم تأهيل تربوي، وعلى ماجستير في إدارة الأعمال، وسجلت رسالة دكتوراه، قبل سنة، عفاف أصغر مني، عمرها ثلاثون سنة، أنا أكبر منها بخمس سنوات، نحن الآن في عام ٢٠٢٤، أرسلت أوراقها بالشبكة، تم قبولها، أخبرتني أنها لم تصدّق، لكن على شرط أن تتدرَّب عامًا دراسيًّا في حي شعبي في بلدها، وترفع تقريرا بذلك، وكان لوالدها صديق هو في الأصل من حلب، ومن أهالي حي صلاح الدين، ولكنه انتقل إلى دمشق ليعمل في تجارة البناء، وأظنه، كما قالت لي، ابن عم أبو سعيد، دلال العقارات، استشارت صديق والدها، وكان من الطبيعي أن ينصح لها بحلب، وبحي صلاح الدين، وأن يدلها على ابن عمه، هي روت لي كل هذه التفاصيل في الزيارة الثانية، وأنا أعطيتها صورة عن الشهادة الثانوية، وصورة شخصية، والله، لم أحدثها عن زوجي في شيء، ولا عن هجره لي، ولكنها أخبرتني أنها ألحت على زوجي ليعيد منير إلى المدرسة، وأخبرتني أنها ستسافر مع نهاية العام الدراسي، لتلتحق بعملها في تونس، وهي ما تزال تخاف ألا يسمح لها بالسفر، ولا تعرف كيف واتتها الظروف فحصلت على فيزا، وجواز سفر،

واستطاعت الحصول على موافقة إعارة إلى منظمة التنمية في جامعة الدول العربية في تونس، مع أن العلاقات مع سـورية مقطوعة، يا إلهي كم هي مرحة، على الرغم من جراحها، وكم هي سخية، أهدت ابنتي ميادة صندوق حلويات، بمناسبة نجاحها إلى الصف الثالث، وحقيبة مدرسية، مملوءة بكتب الصف الثالث، قالت لها: هذه كتبك وهذه حقيبتك للعام الدراسي القادم، أظنها الآن في تونس، لم تسافر إلى دمشق، ليس لها في دمشق أحد، سافرت إلى بيروت، ومن بيروت إلى تونس، تبوح بعفوية وبساطة وصدق، تتكلم بحرقة وألم وقهر.

يرن هاتفي الجوال، ويأتيني صوت زوج أختي:

-أرسلي مع منير الشكوى، أنا هنا تحت، في باب العمارة.

-سأرسل إلى زوجي الكبة بالصينية، هو يحبها كثيرًا، طبختها لأجله يوم أمس، ولم يذق منها ولا لقمة.

-أرجوك، انسي الكبة بالصينية، غير مسموح إدخال الطعام للموقوفين، زوجك موقوف، وليس سجينًا، في السجن يمكن إرسال الطعام إلى السجناء.

-زوجي يحب الكبة بالصينية، وهم لن يردوا لك هذا الطلب البسيط، وسينزل منير، خذه معك، لعله يرى والده.

-مستحيل، حتى أنا لن أراه، يكفي أن أسلّم الشكوى.

-والكبة، لا تنس الكبة.

-أرسليها مع منير، سأحاول.

-أرجوك خذ منير، ليطمئن قلبي، سأظل في الشرفة أنتظر عودتك مع منير.

عند الباب أناول منير صرة الثياب:

-ما هذه؟

-صرة ثياب، لا شيء فيها، غير بيجاما وبعض الثياب الداخلية، ومنشفة، هيا أسرع.

ياســر أحبني، وتزوجني عن حب، كنت أمر أمام محله وأنا في الطريق إلى الثانوية، خطبني إلى أهلي، وانتظر حتى نلتُ الشــهادة الثانوية، لم يتغير إلا بعد أن أنجبت له البنت الرابعة، ختام، والتغير الأشــد كان قبل ثمانية أشــهر، بعد بداية العام الدراســي، في ١٥ أيلول ٢٠٢٣، بعد مجيء عفاف، حتى أختي لم أحدثها عن هجره لي، أضحك من نفسي، نالني بعض الضعف، قلت لنفسي: "لعله يحب امرأة، لعله يفكر في زوجة ثانية"، لكن سرعان ما سخرت من نفسي، طردت الفكرة، وارد المحل لا يكاد يكفينا، الغلاء يزداد يوما بعد يوم، يرتفع سعر الدولار ويرتفع معه كل شيء، حتى ربطة البقدونس يرتفع سعرها، زوجي لا يشتري شيئًا، أنا أتكفل بكل شيء، أذهب إلى سوق الخَضْراوات، بعد شارعين من شارع المدرسة، وأشتري، طبعًا الرز والسكر والسمن هذا من اختصاصه، وكذلك المنظفات بكل أنواعها، هي موجودة عنده في المحل، وهي كل ما يعرف في حياته، لا يعرف إلا أسعار السمن والسكر والزيت والعدس، وأكثر من مرة، عرضت عليه بيع سواري الذهبي، وتطوير المحل، تغيير الواجهة والرفوف ووضع إضاءة على باب المحل، لا يريد تغيير أي شيء في حياته، المحل هو هو نفسه، منذ أكثر من خمسين سنة، لم يغير فيه حتى الميزان، كل المحلات تستخدم الميزان الرقمي، حتى الباعة على الأرصفة، إلا هو، ميزانه هو ميزان أبيه، حدثته عن الربيع العربي، عندما سارت المظاهرات في شارع صلاح الدين الرئيسي عام ٢٠١٣ أغلق المحل، وصعد إلى الشقة، قلت له: "الشعب يريد تغيير النظام، الشعب يبحث عن الكرامة"، قال: "المهم هو الأمان"، أنا كنت أتابع كل الأخبار، ولكن ما كنت أستطيع فعل شيء، أكثر من مرة نزلنا إلى المحل، كنا نسمع أصوات البراميل المتفجرة، فنسرع إلى المحل، حتى إني فكرت في فتح باب للمحل على درج العمارة، حتى لا نخرج إلى الشارع، لكنه رفض، لا يريد أي تغيير.

عفاف حدثتني عن حياتها، كأنها أول مرة تتحدث فيها عن حياتها، تبوح بنشوة وفرح، تتكلم بعفوية وبساطة وصدق، تتكلم بألم وعذاب وقهر، قالت بنشوة: عرض المنظمة العربية للتنمية يقوم على ندبي للعمل ست سنوات، لا أربع

ســـنوات، ومنحي الرواتب بالدولار فور تكليفي بالعمل، بما فيها ســـنة التدريب في ســـورية، وتضـــمن العرض منح وزارة التربية ٣٠٠ حاســـوب، مئتين للوزارة، ومئة لمديرية التربية بحلب، ثم منحتني عشـــرين حاســـوبًا، لذلك وافق معاون الوزير، ووافق الوزير، وأقول لك بصراحة: "مدير الشؤون القانونية في الوزارة صديق أبي، جارنا، يسكن في شقة قبالتنا في العمارة، في حي المهاجرين، ويسهر كل ليلة مع أبي، يلعبان بالطاولة، هو الذي ســـعى لدى معاون الوزير، وأقنعه بالموافقة"، كل النفقات والمصاريف كانت تُرْسَل إلي، وصمتت، ثم أضافت: "الأمر لا شك قبل كل شيء توفيق من الله".

١٨

أجدني أقود سيارة، وهي تنزلق تحتي بكل رخاوة ولين، كأنها سيارة كهربائية، كأنها تمشي على ماء، أدخل بها حديقة كبيرة، أعرف أن الدخول إلى الحدائق ممنوع، ولكن أدخل بها إلى الحديقة، هي حديقة جديدة، لا أعرفها من قبل، أترك السيارة، وأمضي نحو فسحة في الحديقة، أجد بين يدي كاميرا حديثة، أحاول التقاط صورة عريضة للحديقة يظهر فيها عمق الحديقة وما وراءها من أبنية، انتبه إلى صبية قادمة عن يميني، ترتدي ثيابًا خفيفة رشيقة مزينة بالزهور، تحمل مظلة ربيعية مزركشة، تتَّقي بها الشمس، أحس أنها فرنسية، أقترب منها، أمشي معها، أضع يدي في يدها، نتمشى معا في ممرات الحديقة، أفتقد السيارة، لا أعرف كيف غابت، ترفع الصبية القبعة، أتنبَّه إلى وجهها، زينة وألوان فاقعة، يا إلهي، هي رجل.

صوت رجل يناديني:

- ياسر، ياسر.

أفتح عيني، مطيع، الشاب سائق سيارة الأجرة، يهزني، يوقظني، الحارس في الباب يناديني:

- ياسر عبد الله، تفضل.

أسرع نحو الباب، يقول لي:

- أحضر معك صرة ثيابك.

أسأل:

- هل سأنقل إلى غرفة أخرى؟

- احمل الصرة، الحقني، ولا تسأل.

يسير بي في ممر طويل، نصعد درجًا، يقول لي:

- سيحقق معك الآن سيادة النقيب، أنت محظوظ، شاب أصغر منك في العمر، حاصل على الماجستير في الحقوق، ويحضِّر الآن لنيل الدكتوراه، وحاصل

من قبل على الإجازة في علم النفس، مهذب جدًّا، لطيف، لا يزعج أحدًا في التحقيق، سيادة العميد رئيس الفرع كلفه بالتحقيق معك، أتوقع إطلاق سراحك، لتمضي العيد مع الزوجة والأولاد، ونحن نمضيه هنا مع المشبوهين والمتهمين، مع المجرمين.

-حظي جيد.

-ليست مسألة حظ، سيادة رئيس الفرع يدرس ملف كل قضية، ويعرف التفاصيل، بعد ذلك يوجه كل قضية إلى الضابط المحقق المناسب لها، أنت تهمتك بسيطة، لعبة أولاد.

-ماهي؟

-الآن ستعرف.

الحارس ينقر على الباب ثلاث نقرات، ثم يفتح الباب، ويدخل، أدخل في إثره.

الحارس يحيي، ويقف في استعداد.

النقيب أسمر، ممشوق القامة، نحيل، مشدود القوام، كأنه رياضي، وليس ضابطًا في الجيش، ينهض من مكتبه، يتقدم نحوي يصافحني، وهو في زيه المدني.

فوق المنضدة على يمينه نسخة من المصحف الشريف، تظهر من بين أوراق المصحف وريقة صغيرة، هل كان يقرأ في القرآن الكريم؟ هل سيدعوني إلى القسم على المصحف؟

يشير إلى الحارس، فيخرج، وهو يغلق الباب وراءه.

النقيب يشير إلى مقعد عريض أمام مكتبه، يقعد قبالتي في مقعد آخر، بيننا طاولة يعلوها زجاج نظيف لامع، يتوسطها مزهرية جميلة.

يتكلم:

- نحن هنا في مكتبي نجري التحقيق، ليس عندنا غرفة صغيرة عارية، يتوسطها منضدة وكرسيان متقابلان، ويعلوها مصباح، كما ترى في الأفلام، نحن هنا لا نحقق، نحن نجري مقابلة لنساعد المتهم للوصول إلى الحقيقة، لذلك، أريدك

أن تكون مرتاحًا، وأريد أن تكون واضحًا وصريحًا، أنا أريد مساعدتك، كي تخرج اليوم، وتمضي العيد مع زوجتك والأولاد.

- شكرًا، سيادة النقيب، بارك الله فيكم.

- أنت وصلتَ الخميس عصرًا إلى حلب، وتوجهتَ إلى المحل فورًا، ونزلتْ زوجتك والأولاد، وأحضروا لك الطعام، ولم تأكل.

- نعم، سيدي.

يضحك، ويعلق:

- هذه جريمة أولى بحقّ الأسرة كلها، ما رأيك؟

- بأمرك سيدي، أنت الحاكم، وأنا المحكوم.

- دعتك زوجتك والأولاد للصعود إلى الشقة، ولم تصعد.

- نعم سيدي، أرى أنكم تعرفون كل شيء.

- طبعا، نسأل كل الأطراف، قبل أن نحقق مع المتهم.

- بارك الله فيكم سيدي.

- وعدم تلبيتك طلب الأسرة جريمة ثانية.

- بأمرك سيدي.

- وبعد ذلك، ماذا جرى؟

- لا شيء، جاءت سيارة، وأحضروني إلى هنا.

- قبل مجيء السيارة؟

- تناولت قطعة، أو قطعتين من الحلاوة الطحينية، وهي عندي في المحل أبيع منها للزبائن.

- بالمناسبة، أنت سافرت إلى دمشق، لماذا سافرت؟

يا إلهي، يعرف كل شيء، أخشى أن يسألني عن الحلم، هل أروي له الحلم، لا شك سيسخر مني، ما هذا الحلم، ثمانية أشهر وأنا حبيس المحل، لم تراودني الأحلام، أو لعلها كانت تراودني، وأنساها، هنا، ما أكاد أغفو حتى أرى ألف حلم.

-لم تجب عن سؤالي؟ لماذا سافرت إلى دمشق؟

- عفوًا سيدي، نزهة.

- نزهة وليوم واحد؟ ومن غير هدف؟

- سيدي، كنتُ متعبًا، وأردت الترفيه عن النفس.

- هل لديك صديق في دمشق؟

- لا.

- هل عندك صديقة في دمشق؟ نحن رجال، ولنا قلوب، هل عندك صديقة؟

- لا.

- جيّد، دعنا من دمشق، سنرجع إلى موضوع السفر، بعد عودتك: هل دخل إلى المحل أحد الزبائن؟ هل بعتَ شيئًا؟

- لا.

- هل مرَّ بك أحد، عَلِمِ بسفرك فجاء يسلم عليك؟

- مرَّ بي الدكتور ذهب.

- سلَّم عليك؟

- سلّم، من وراء الزجاج، ومشى.

- هل قال شيئًا؟

يبدو أن سيادة المحقق يعرف كل شيء، لماذا يسألني؟ ولماذا يحقق معي؟ ليعترف هو بكل شيء، بدلا من جَرّي للاعتراف.

- نعم سيدي، قال لي: عفاف لي، ليست لك، ولو لحقتَ بها إلى الشام.

- من هي عفاف؟

- مديرة المدرسة أمام المحل، كانت تشتري له علب البسكويت وقطع الحلاوة من محلي.

- هل كانت تحبه؟

- هو كان يحبها.
- وهي؟
- لا أظن أنها كانت تحبه.
- وأنت؟ هل كنت تحبها؟ لماذا سافرت إلى دمشق؟ هل فعلا كنت تريد اللحاق بها؟ كما قال لك الدكتور ذهب.
- سيدي، هو أبله، وليس بالدكتور.
- أعرف هذا، ولكن أسألك: هل كنت تحبها؟ وكان ينافسك في حبها؟
لا أعرف كيف أجيب، أصمت.
لا شك في أنه حقق مع الدكتور ذهب، ولعله حقق مع والده، أو مع أبو سعيد، أو حتى مع زوجتي، أو مع منير، يا إلهي؟ جنيت على نفسي.
يتكلم:
- أريد صِدْقَك، بل أريد صراحتَك، هل كان بينك وبينها علاقة؟ وهي تسكن في الشقة فوق محلك بالضبط.
أنتفضُ مذعورًا.
- معاذ الله، سيدي، لا علاقة، ولا تواصل، حتى رقم هاتفها ليس عندي، هاتفي في المحل، يمكن أن تذهبوا، وتتأكدوا بأنفسكم.
- هذا ليس دليلًا على أنه لم تكن بينكما علاقة.
- أقسم بالله، سيدي، لم تكن تدخل محلي، وطوال ثمانية أشهر من عملها مديرة، لم تدخل محلي، كانت تقف في الباب، وتشتري البسكويت والحلاوة للدكتور ذهب، أو تشتري البُنّ، وتخرج، لا تخطو أي خطوة داخل المحل.
- لماذا لحقتَ بها إلى دمشق؟ لماذا هجرتَ زوجتك لأجلها؟
- هجرتُ زوجتي لأنها لم تنجب لي غير البنات.

- لكنك لم تهجرها قبل وصـــول عفاف، هجرتَها، بعد شـــهر مِن تعرُّفِك على عفاف، أو لنقل من مباشـــرة عفاف عملها مديرة، مع بداية العام الدراســـي في الخامس عشر من أيلول، هل كنت تحبها؟

- هل زوجتي هي التي رفعت شكوى ضدي بسببها؟

ينهض، يتمشى، ثم يعود إلى القعود أمامي:

- أنا الآن دوري في السؤال، بعد أن أنتهي من أسئلتي يمكن أن تسألني.

- عفوًا، سامحني، أنا بأمرك.

- هل كنتَ تحبها؟

- لا يمكن أن أسميه حبًّا، هو إعجاب، ميل، اهتمام، طيش.

- على مهلك، كل حالة لها عقوبة مختلفة، وخاصة الطيش.

- ســـيدي، اختر الحالة الأصـــعب، وأنا مســـتعد لتحمُّل العقوبة، نعم، أنا مذنب، أحببتها، ولكن الحب الشـــريف، حب بريء، حب من طرفي أنا، وحدي، حب المراهقين، هو طيش، جنون.

- لم يكن بالحب البريء، حب أدى إلى جريمة.

- ما هي سيدي؟

- هَجْرُ البيت والزوجة والأولاد.

- ورَفْعُ زوجتي شـــكوى ضـــدي، وسَـــعْيُها للرمي بي هنا عندكم من غير ذنب؟ ماذا تسميه؟

- هل تظنُّ أنها هي سبب إحضارك إلى هنا عندنا؟

- أنا متأكد، ليس أحد غيرها، هل ســـيرميني هنا ذلك الدكتور الأبله؟ من أجل عفاف التي يظن أنه يحبها؟

- ولمَ لا يفعل؟ هو مجنون بها، والمجنون يمكن أن يفعل كل شيء.

- لا أعرف، سيدي، أنتم، أدرى.

- سؤال أخير، بعد أن مرَّ بك ذلك المجنون، وسلَّم من وراء الزجاج ومضى، هل جاء أحد غيره؟
- لا.
- تذكَّر، قبل مجيء سيارتنا، وإحضارك إلى هنا، مَن دخل عليك في المحل؟ تذكَّرْ.
- نعم، جاء أبو الدكتور المجنون.
- هل دخل المحل؟
- نعم.
- ماذا قال لك؟
- قال: ابتعد عن عفاف، هي خطيبة ابني، عفاف ليست لك.
- ماذا قلت له؟
- طرَدْتُه.
- كيف؟
- لا أتذكر.
- لا، هدَّدْتَه بسكين كانت في يدك؟
- لم أهدِّدْه، لكن كانت السكين أمامي، لا أعرف كيف رفعتُها، وأشرت بها.
- هل قلتَ له سأقطع رأسك؟
- لا، قلتُ له: سأقطع لسانك.
- أنت هدَّدْتَه، هذا تهديد.
- هو كلام عادي.
- بعد ذلك؟
- خرج ومضى.

النقيب ينهض، يضغط على زر، يدخل الحارس.

يشير إليه، إشارة لم أفهمها، الحارس يتأبط ذراعي، وهو يقول:

- تفضل معي.

في الخارج يقول لي الحارس:

- ليس من عادة سيادة النقيب الغضب، ولكنك أغضبتَه، لم تكن صادقًا معه، ولا صريحًا.

-ما لاحظت عليه هذا، لم يغضب، ما كان يحقق معي، كان يمازحني.

-هذا هو أسلوبه.

- لن يُطْلَقَ سراحي، لن أعود إلى زوجتي وأولادي؟

- لا أعرف.

أتردد، أسأله:

-نسمع عن التعذيب.

يضحك، يقف، يمسك يدي، يشد عليها، أكاد أصيح من الألم، كأن عظام يدي تشظت، يسأل:

-هل آخذك لترى كيف يكون التعذيب؟

١٩

إلى غرفة شبه خالية إلا من بعض قطع الأثاث المهمل، يقودني الحارس، وأنا أحمل صرة ثيابي، يتركني وحدي، ويخرج.

لم أكذب، ولم أضف شيئًا، ولم أنقص، رويتُ كلَّ ما جرى، هل أُعاقب على الحب؟ نعم أحببتها، وهجرتُ زوجتي، هذا شأني، هل يريد معالجتي نفسيًّا؟ وما دَخْلُ الأمن الجنائي بشؤون الأسرة؟ زوجتي هي التي اشتكتْ، ورمتني هنا، أنا أعرف، تريد الانتقام.

وماذا بعدُ؟ ليتني أرجع إلى غرفة التوقيف، إلى البئر، هناك كنتُ أعيش بالروح مع عفاف، استرجعتُ كلَّ أيامي، كلَّ حياتي، أود أن أروي لهم جميعًا الحلم، ما معنى السيارة، وما معنى الحديقة؟ لكن لن أروي لهم عن الصبية التي ظهر أنها رجل، هناك كنت أحلم، هنا أصبح عقلي مغلقًا، بماذا أفكر؟ لا أنا في فرع الأمن ولا أنا خارجه؟ أنا هنا معلّق بين السماء والأرض، لستُ محكومًا ولست بريئًا، أنا هنا وحدي، لا عفاف ولا أبو سعيد ولا أمي، لا أحد، وحدي.

أقعد على كرسي معدني، جدران إسمنتية ترشح رطوبة، عفنة، منضدة حديدية صدئة، يعلو سطحها زجاج مكسور، وراءها كرسي معدني، في الزاوية سرير صدئ من أَسِرَّةِ العساكر، أنا هنا في منفى، أحس بقُشَعْرِيرة.

لم أعد أستطيع تذكُّرَ أي شيء، أنا هنا وحدي قطعة إسمنت، قطعة حديد صدئة، حتى الخيال جمد، لم أعد أستطيع تخيُّلَ أي شيء، الخيال نعمة، الخيال حرية.

لا بدَّ أن أعترف، الضابط لم يحقق معي، الضابط لطيف، مهذّب، الضابط لقَّنَني درسًا، كان مُعالِجًا نفسيًّا، ولم يكن مُحَقِّقًا.

هذه مشيئتك يا رب، ليس لي سواك، يا ألله.

يا إلهي، ما ذنبي؟ يا ربي، طوال حياتي ما غششتُ، ولا كذبتُ، أتسامح في الميزان، وأتسامح في البيع، أرضى بالربح القليل.

رضيتُ بالبنات، سامحني يا رب، ارزقني عشرَ بنات، يكفيني ولدي منير.

طوالَ حياتي لم أُصَلِّ، ولم أدخل المسجد.

سوف أُصَلي، يا ربّ، أنقذني من هذه المحنة.

لا بد أن أعترف، مذنبٌ أنا، مخطئ، بل آثم، طبعي غلبني، مرة قال لي أبو سعيد، أعز أصدقائي: "أنت عصبي، وعنيد"، ثم أضاف: "أنت تجمع نقيضين، العصبي ينفعل، لكنه يروق بسرعة، وينسى، أما العنيد فلا ينفعل، بل يعتقد بفكرة، يتمسك بموقف، ولا يغيِّر رأيه، ولا يتراجع عن موقفه"، الحقيقة، أنا لا هذا ولا ذاك، أنا عاطفي.

ذات مرة، لا أعرف كيف خرجت فجأة من المحل، قفزت فوق الدرجات، وجريت وراء الرجل، وناديته: "شيخي، شيخي"، كنت قد لمحت رجلًا معمَّمًا يمر أمام المحل، يرتدي جُبَّة فضية اللون، ويضع شالًا أخضر على كتفه، لا أعرف كيف خطر على بالي أن أسأله، حتى إني ما كنت أعرف ماذا سأسأله، الرجل وقف، التفتَ نحوي، وإذا هو في نحو الستين، وصاحب لحية بيضاء طويلة، لكنها مصبوغة بالحناء، بدت حمراء، وصلتُ إليه، قلت له: "شيخي، أريد سؤالك"، ردَّ بحدة وسرعة: "اسأل"، سألته: "شيخي، أنا عندي أربع بنات، وولد واحد، زوجتي لا تنجب غير البنات، وأنا هجرتها منذ ثمانية أشهر"، انفجر غاضبًا، وصاح بي: "ماذا تقول يا رجل؟ هذا فسق، فجور، استغفر ربك، وارجع إلى زوجتك، جامِعْها، لها حق عليك"، وأولاني ظهره ومضى.

رجعت إلى المحل خائبًا، مكسورًا، لا أعرف لماذا جريت وراءه، لماذا رويتُ له ما رويت، لا أعرف ماذا كنت أريد، أحس أني مذنب.

أغلقت الباب الزجاجي للمحل، واجتزتُ سوق الخَضْرَاوات، وشارع صلاح الدين، قصدتُ الشيخ سليمان، في جامع النصر، في آخر شارع سيف الدولة، يبدو

أني وصلت عقبَ صلاة العصر، دخلتُ المسجد، والشيخ سليمان على وشك المغادرة، أسمع عنه الكثير، سمعته طيبة، لذلك قصدته، طلبتُ منه أن يمنحني خمس دقائق، فدعاني إلى غرفته، قدّم لي كأس شاي، أخبرته عن هجري زوجتي، لأنها لا تنجب لي سوى البنات، أحسستُ به انفعل، لكنّه مسح لحيته بيده، لحيته ليست طويلة، فيها قليل من الشيب، هو في نحو الخامسة والأربعين، تكلّم بهدوء، قال:

-الأولاد، يا بني، رزق من الله، وأنت مؤمن بالله، ومصدِّق لكلماته، لذلك قصدتَني لتسألني، وهذا يبشِّر بالخير، استمعْ إلى قوله تعالى في سورة الشورى.

وأخذ يتلو عليَّ بصوت اقشعر له بدني، وانهمرت الدموع من عينيَّ.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

ثم تكلّم، فقال:

-يا بني، الله ذَكَرَ الإناث أوَّلًا، ثم ذَكَرَ الذكور، والإناث والذكور على السواء هبةٌ من الله، هم عطاء، لن أُطيل عليك في الكلام، فقط أذكِّرُك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ كانتْ له ثلاثُ بناتٍ، فصبر عليهن، وسقاهن، وكساهن، كُنَّ له حجابًا من النار".

والله ما أزال أذكر الآية الكريمة، والحديثَ الشريف، ولا أنسى دموعي التي انهمرت، ولكن لا أعرف، كلما ذُكِرَت البنات اقشعرَّ جسمي، أحسّ بدمي يغلي ويفور، أشعر بالدنيا وقد ضاقت بي، لا أستطيع أن أملك نفسي، ماذا أفعل؟

قبل أن أخرج، داعبني الشيخ، وقال لي:

-يا بني، الرجل هو المسؤول عن نوع الجنين، لا الأم، اسمعْ قول المرأة التي هجَرَها زوجها، لا لشيء، إلا لأنها لا تنجب له البنين، اسمع ماذا قالت لزوجها أبي حمزة.

وأنشدني أبياتًا مِنَ الشعر، وهو يضحك، لعلّي ما أزال أحفظها:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظلُّ في البيت الذي يلينا
غضبانَ أن لا نلد البنينا تاللهِ ما ذاكَ في أيدينا
ونحنُ كالأرضِ لزارعينا تُنْبتُ ما قَدْ زرعُوه فينا

ثم سار معي في باحة الجامع، وهو يحدثني ويتكلم، لا أزال أذكر كلماته: "الأولاد ليسوا لنا، هم أمانة، هم للحياة، نربيهم، ونَسْعَدُ بهم، ثم ينفصلون عنا، لينشئوا أُسَرًا جديدة، نحن لا نملكهم، الملك لله، حتى أنفسنا، نحن لا نملكها، الملك لله، أنت تحفظ قوله تعالى: إنّا لله، وإنّا إليه راجعون".

وصمت، ثم قال، وهو يمشي إلى جواري: "أخي الكريم، أثبت العلم أن المسؤول عن نوع الجنين هو الرجل، لا المرأة، الرجل يقذف ملايين الحيوانات المنوية، منها المذكر، ومنها المؤنث، والحيوان المنوي الذي يخترق البويضة ويلقحها هو الذي يحدّد جنس الجنين"، ويصمت ثم يضيف: "واسمع قوله عز وجل في سورة الشورى: "وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى"، واضح، أنك أنت المسؤول، لا هي.

عند الباب، استوقفني، وسأل: "هل في حياتك امرأة أخرى؟"، صمتُّ، لم أنطق بكلمة، رَبَتَ على كتفي، وقال: "ارجعْ إلى زوجتك، أصلحكَ الله، واستغفرْ لذنبك".

خارج باب الجامع افترقنا، هو انعطفَ نحو اليمين، ذاهبًا في اتجاه الجنوب، وأنا انعطفتُ نحو اليسار، ذاهبًا نحو الشمال، أحسستُ أن بيني وبينه بُعْدَ ما بين الشمال والجنوب، لا أعرف، هذا أنا.

حفظتُ كلامه، دَخَلَ في عقلي، دخلَ في قلبي، هزَّ وجداني، حفظته، وها أنا ذا أسترجعه، كلمة كلمة، أكاد أسمع صوته الدافئ الحنون، كأنه صوت أبي، لكن، لا أعرف، ماذا أقول؟ سامحني يا ربي.

ما كان عليَّ زيارة الشيخ، أنا أعرف هذا، زيارته زادت من إحساسي بالذنب، تألمتُ أكثر.

أقر في نفسي أني مذنب، ولكن لا أستطيع أن أغير عقلي، حقيقة، كما قال أبو سعيد، أنا عنيد.

مرةً كنت أمام التلفزيون، قبل أن تأتي عفاف، كنتُ في البيت، مع زوجتي، مع منير، والبنات، أقول البنات، وقلبي يحترق، ظَهَر الدكتور رامز في برنامج طبي، بدأ يتحدث عن الحيوانات المَنَوِيَّة، المذكّرة والمؤنّثة، وما إنْ همَّ بالكلام على البويضة عند المرأة، وجنسِ الجنين، حتى انتقلتُ إلى قناة ثانية، زوجتي لم تتكلم، نهضتْ، ذهبتْ إلى المطبخ، أظنها كانت تداري الدموع في عينيها، كان هذا قبل مجيء عفاف.

في طريق العودة إلى المحل، أذهلني شارع سيف الدولة، لم أتوقع كل هذا الدمار، سمعت عن البراميل المتفجرة والصواريخ والهجرات والعمارات التي سقطت، لكن ما توقعت أن أرى مثل كل هذا الدمار، ليس كمثله دمار، حتى دمار ألمانيا.

عمارة سُوِّيَتْ بالأرض، بين صف من العمارات، كأنها ضرس مخلوع، والطوابق العليا على الطرفين من العمارة مدمرة، كأنها أضراس متثلِّمة، مكسرة، أين البشر؟

أخترق شوارع صلاح الدين الفرعية، ما هذا الدمار، سمعت، وسمعت، وسمعت، ولكن ما أراه أكبر مما سمعت، كل الطوابق العليا مدمرة، وكثير من العمارات في الأرض، بعض الطوابق هوى بعضها فوق بعضه الآخر، مثل طبقات في قالب الكاتو؟ ما هذا؟ لا أكاد أصدق؟ في أثناء ذهابي إلى جامع النصر اجتزت الشوارع نفسها، أظن أني لمحت هذا الخراب، ولكن كأني ما رأيته، زوجتي كانت تقول لي، تعال اسمع الأخبار، انظر إلى مشاهد الدمار، وأنا أقول لها: "لا تصدّقي، قنوات معادية، وصور مكرورة"، أسمع عما يدور خارج محلي، في حي صلاح الدين، في حي سيف الدولة، في حلب، أسمع عن شباب يهاجرون إلى الخارج، إلى تركيا، إلى ألمانيا، أسمع عن أسر بكاملها تنزح من الحي الشرقي في حلب، إلى الحي الغربي، الحي الغربي نفسه لم يسلم.

كنت حبيس محلي، لا أغادره.

والآن أنا حبيس هذه الغرفة، وحدي، كأنني في قبري.

أتذكر سميحة، لا أعرف لماذا خطرت الآن على ذهني، كرهتها، لا أعرف لماذا كرهتها؟ كان يجب أن أخدعها، أحسست أنها تخدعني، أحسست أنها تريد إيقاعي في فخ. هل كرهت النساء لأجلها، هل تجنبت زوجتي بسببها؟ لا أعرف هل أنا غبي؟ أحمق؟ غر؟

أول مرة دخلت المحل عرفتني بنفسها، قالت: "أنا هنا معلمة، في المدرسة مقابل محلك"، ثم طلبت قلم حبر أحمر جاف، ناولتها قلمًا، جربت خطه على ورقة، قالت: "هذا خطه رفيع جدًّا، مزعج، لا يساعدنا على تصحيح أوراق المذاكرة"، ناولتها قلمًا آخر، جربته، تذمرت، قالت: "هذا مزعج، يدي تتشنج منه، الحبر لا يسيل منه، أريد قلما يتدفق منه الحبر بسرعة وبغزارة"، جرَّبَتْهُ، سألت عن سعره، قالت:" أريد قلمًا أرخص"، عرضت عليها عدة أقلام، قالت: "أريد قلمك أنت، بأي قلم أنت تكتب؟"، قلت لها: "أنا لا أكتب في دفتر المبيعات بالقلم الأحمر، أنا أكتب بالأزرق"، علقت فقالت: "الأحمر أجمل، وأوضح"، وفي هذه الأثناء دخل عدة زبائن، فانشغلت عنها، وهي تحاول سؤالي، وقد مللت منها، فتناولت أحد الأقلام، وناولتها إياه، وقلت لها: "تفضلي، خذي هذا القلم، وهو هدية مني إليك"، وأنا أريد صرفها، ارتبكتْ قليلًا، وحاولت السؤال عن سعره، فقلت لها مؤكدا: "هو هدية"، علقت: "شكرا، سأقبَلُه، سأعتبره عربون صداقة، سأكون من زبائنك، وسأدل طلابي وطالباتي على محلك"، ثم علقت، وهي تعبّر عن ألم شديد: "سأحكي لك، قلت لك أنا معلمة، واسمي سميحة، اليوم أزعجتني المسؤولة في الامتحانات، طلبت منها قلمًا أحمر لتصحيح أوراق الطلاب، وكان بيدها قلم أحمر، فأخذتْ تخط به على ورقة أمامها دوائر ودوائر ودوائر، عشرات المرات، بل مئات، ثم قالت: "قلم أحمر يكفيك تصحيح أوراق المذاكرات خمس سنين، وتبخلين عن شرائه"، خرجت من المدرسة، وأنا أكاد أبكي، شكرًا لقلمك، سأحتفظ به، هو عزيز علي"، بعد بضعة أيام دخلت المحل،

طلبت عشرين دفترًا، أخبرتني أنها تريد إهداءها للطلاب، قلت لها: "ليس عندي كميات كبيرة"، ودللتها على مكتبة الأطلال في بداية شارع صلاح الدين، وقلت لها: "أنا شخصيا أشتري الدفاتر من محله، وأبيعها للطلاب، ولا أربح فيها إلا القليل، وليست غايتي الربح، غايتي أن يعتاد الطلاب على المحل"، ردت قائلة:" أعرف هشام صاحب مكتبة الأطلال، جاف، لا أحبه، أنا ارتحت إليك، أنت سمح في البيع، طبعك مثل اسمي، قلت لك اسمي سميحة"، بعتها الدفاتر بالسعر الذي اشتريتها به، لم أربح أي ليرة، وأنا أريد صرفها، أحسست بها ثقيلة الظل، في اليوم التالي دخلت علي، قالت: "بالأمس، شممت عندك رائحة قهوة، هل تبيع البن؟"، قلت لها نعم، وبدأتُ أسئلتُها تنهال علي: "هل تحب القهوة بالهال، أو من غير هال، وبالسكر أو من غير سكر، وهل تحبّها مغلية كثيرًا، وكم فنجانا تشرب في اليوم، وهل تشربها في الصباح قبل النزول إلى المحل؟ وهل تعدّها لك زوجتك؟ أم هل تعدُّها أنت بنفسك وزوجتك نائمة؟"، تذمَّرْتُ من أسئلتها وتشاغلتُ عنها بوضع الأسعار على المواد في المحل، وقبل أن تخرج قالت: "عندك هناك في الداخل مطبخ صغير، أشتهي أن أذوق ذات يوم قهوتك، وسأجعلك تذوق قهوتي"، ثم خرجت، فتنفست الصعداء، لا أعرف سبب نفوري منها، بل اشمئزازي منها، أحسست بأسئلتها سمجة، ثقيلة، لا معنى لها، ولا مبرر، مجرد ثرثرة.

أين سميحة من عفاف؟ لعل عفاف هي سبب نفوري من سميحة، لو جاءت سميحة قبل مجيء عفاف، قبل عام، أو عامين، ربما كنت وقعت في فخها، أو شركها، يا إلهي، لماذا قلت في فخها، أو شركها، ولم أقل في حبها؟

دخلت عليَّ في يوم آخر، وطلبت شامبو للحمام، فقلت لها بجفاء: "انظري إلى هذا الرف، كل العلب فوقه هي علب شامبو"، قالت: "أريد أفضل نوع"، وأجبتها:"كلها جيدة"، وسألت بإلحاح: "أي نوع تستعمل أنت؟ أريد النوع الذي تستعمله أنت"، أجبتها: "أنا أستعمل الصابون بزيت الغار"، وسبقتها إلى القول من غير أن تسأل: "وزوجتي مثلي، لا تستعمل الشامبو، تستعمل صابون زيت الغار"،

صمتَتْ، ذهبت وجاءت في داخل المحل، ثم قالت: "لو تعرف، بشرتي ناعمة، وحسَّاسة جدًّا، وشعري ناعم، مثل الحرير، أريد شامبو يناسب بشرتي"، أشرت إلى ثلاثة أنواع، وقلت لها: "هذه تناسبك"، سألت: "رأيت العلب كلها، مكتوب عليها للشعر الناعم، واحدة برائحة الليمون، والثانية برائحة اللافند، والثالثة برائحة السرو، لا أعرف أي رائحة أنت تحب أن تشم، مثلا، تخيل أني خارجة من الحمام، أي رائحة تحب أن تشم"، ودخل زبون من الحي، يطلب ربع كيلو من الشاي، فتظاهرَتْ بالبحث في الرفوف، وسألتني: "أي الزيوت النباتية أفضل لقلي البطاطا"، وبعد انصراف الرجل، التفتَتْ، وقالت: "أنا سأختار رائحة السرو، وأنصح لك أن تستخدم زوجتك الشامبو برائحة السرو، بعد خروجها من الحمام، سوف تشم في الشقة كلها رائحة السرو، سوف تحس كأنك في غابة"، ولا أنسى يوم دخلت علي، وفتحت حقيبة يدها، وأخرجت صندوقًا ورقيًّا صغيرًا مزخرفًا ملفوفًا بشريط ذهبي، وأخذت في فكه، وهي تقول: "معلمة، زميلة لنا في المدرسة، وزَّعت علينا هذه الضيافة بمناسبة عقد قرانها"، وأرسلت زفرة، ثم قالت: "آه، لو تراها، سوداء، بنية اللون، مثل هذا الخشب المحروق، وعيونها صغيرة كأنها عيون فأر، بعض الرجل ضربهم العمى"، ثم سألتني بهدوء هامسة، وهي تميل نحوي: "هل زوجتك جميلة؟ ليتني أراها، لأعرف هل تليق بك؟"، ثم فتحت العلبة، وغرفت بيدها كل ما فيها من قطع الحلوى، وقالت: "افتح يديك"، وصبت القطع كلها بين يدي الاثنتين، وبأصابعها الراعشة أغلقت راحة يدي، وضغطت على يدي الاثنتين، وهي تقول: "تناولها في الليل، أنت وزوجتك"، أصابعها ترتعش، أصابعها نار حارقة، اضطربْتُ، حِرْتُ في أمري، بعفوية قلت لها: "بل نتناولها، أنا وأنت"، قالت: "سنكتفي الآن أنا وأنت بواحدة، والبقية تتناولها مع زوجتك"، ثم قالت: "عليك اختيار واحدة"، قلت: "بل الخيار لك"، قالت: "بل أختار ما تختار أنت، ذوقك هو ذوقي"، تناولتُ قطعة شيكولاته كبيرة، ناولتُها إياها، فضَّتْ عنها الورق الملون بأنامل راعشة، قربَتْها من فمي، وقالت: "خذ منها قضمة"، ترددتُ، خجلتُ، قلتُ لها: "بل تذوقيها أنت قبلي"، قالت: "أنا أريد أن أذوقها

ومعها ريقك"، قضمتُ منها، وناولتها إياها، قالت وهي تتغنج بصوتها: "آه، الآن صارت أطيب"، وأخذت تمضغها بهدوء، وتلعق حواف شفتيها، وفي يوم آخر، قالت: "سوف أستشيرك في أمر"، قلت لها: "خبرتي قليلة، لا أعرف"، قالت: "بل أنت سيد العارفين"، قلت لها: "ادخلي في الموضوع مباشرة واسأليني لا أحب المقدمات"، قالت: "اشترى لي أبي منذ سنتين شقة صغيرة، من ثلاث غرف، في حي حلب الجديدة، الحي الجنوبي، في الطابق الثاني، وغدًا سوف نشتري غرفة للضيوف، وثانية للنوم، وثالثة للجلوس، ما الألوان التي ترتاح إليها؟ الأزرق القاتم مع الأزرق الفاتح، أم هل تفضل البني القاتم مع البني الفاتح؟"، أجبتها:" الموضوع موضوع أذواق، والأذواق تختلف"، ألحَّتْ: "أريد معرفة ذوقك"، وصمتَتْ، ثم سألت: "هل تفضل في غرفة النوم سريرين منفصلين؟ أم تفضل السرير الواحد المزدوج الواسع؟ وكيف هي غرفة نومك؟"، ووقفَتْ أمام المحل سيارة توزيع المواد، فخرجتُ وبدأتُ أساعد العمال في إدخال المواد إلى المحل، وتشاغلتُ عنها، فوقفتْ هي في مكاني من المحل، وكأنها تنتظر الزبائن لتبيع، وبعد انصراف السيارة، بدأتُ بترتيب البضاعة، متشاغلًا عنها، فقالت: "هل أساعدك؟"، فقلت لها: "أشكرك"، ثم ما لبثت أن قالت: "لو كنت زوجتك، كنتُ قعدتُ في المحل طوال اليوم لأساعدك"، ثم سألت: "ما رأيك في أن أعمل عندك في المحل مساعدة، معاونة، سكرتيرة"، ثم أضافت: "وأقترح عليك تبديل هذه الرفوف الخشبية القديمة، برفوف ألمنيوم حديثة، ووضع لوحة كبيرة فوق المحل، ووضع إضاءة لافتة للنظر، وأنا معي مبلغ لا بأس به، يمكن أن أقدّمه لك على سبيل القرض الحسن، إلى أمد بعيد، وإذا أردت يمكن أن أكون شريكة معك، ونزود المحل بأنواع جديدة من البضائع، يجب تجديد كل شيء في حياتك"، قلت لها متذمّرًا: "أشكرك، لا أريد تغيير أي شيء، هذا المحل ورثته عن أبي، وأنا أحس بروح أبي تطوف حولي، والآن أرجو أن تسمحي لي بتهيئة المواد الجديدة، ووضعِها على الرفوف"، أجابت: "سوف أساعدك"، قلت لها: "أشكرك، لا تتعبي نفسك"، أضافت على الفور:"سوف أصنع لك فنجان قهوة، وعدتُك من قبل أن تذوق قهوتي، أنا أعد القهوة بطريقة مميزة، ستذوق القهوة

من يدي، أنا أعرف، عندك هناك في العمق من المحل مطبخ صغير، وسرير وعليه فراش ووسادة، صدقني أشتهي لو أنام في الداخل، ولو ربع ساعة، أحب الأماكن الصغيرة الضيقة المعتمة، من صغري كنت أختبئ تحت الأَسِرَّة والمناضد وأصنع لنفسي من الوسائد والأغطية غرفة صغيرة أختبئ فيها"، قلت لها: "أرجوك، سيلاحظ أهل الحي وجودك الطويل في المحل"، قالت: "وما المشكلة؟ أنا واحدة من زبائنك، واحدة من رواد المحل، قل لهم هي شريكتي، لا تهتم للناس"، وتمضي إلى عمق المحل، وأبدأ بترتيب المواد على الرفوف، ويأتني صوتها من عمق المحل:"ياسر، أين الملاعق الصغيرة"، وأرد "عندي ملعقة واحدة على الرف، بجوار الفناجين"، وتصيح: "الرف عالي، تعال ساعدني"، وأرد: "حاولي، لا أستطيع ترك البضائع"، وتنادي: "أين السكر؟"، وأرد: "أنا أحبّها من غير سكر، مُرَّة"، وتضيف :"أنا سأسقيك القهوة حلوة، ستجدها حلوة، ولو من غير سكر لأنها من يدي، تعال ساعدني"، وأتجاهل نداءها، ثم تصيح: "ياسر، الحقني، نارك قوية، حرقت إصبعي"، وأرد: "صبي عليها الماء، من الحنفية"، وتصيح:" تعال أرجوك، ساعدني، الماء لا يطفئ"، وأسمع صوت تحطم زجاج، هو الفنجان من غير شك وقع وانكسر، ويأتيني صوتها: "وقع من يدي الفنجان وانكسر، ما عندك غير فنجانين، تعال"، صوتها في إيقاع ناعم منغم تناديني: "تعال، نشرب القهوة هنا، في الداخل، نسدل هذه الستارة، ونقعد على حافة السرير، ونشرب قهوتنا معًا، نشربها من فنجان واحد، أشرب وأسقيك، وتشرب وتسقيني"، وأسمع خبطات من الخارج على الباب الزجاجي للمحل، أنتبه، مَن أغلق الباب؟ أنا أتركه دائمًا مفتوحًا، هي من غير شك، أغلقته في أثناء انشغالي في ترتيب البضاعة، الدكتور ذهب يلصق وجهه بالزجاج، يلصق فمه، يلصق أنفه، ثم يدفع الباب فينفتح، ويدخل، أنزل من السلم، يناولني حبات سيتامول، ويقول لي: "اشربها الآن أمامي"، أقول له: "سأشربها بعد الطعام، معدتي الآن فارغة"، وأناوله أوراقا نقدية، وأقول له: "خذ ثمنها"، وأنا أريد صرفه، يقول لي: "لا أريد، أنا أخذتها من المستشفى، من عند والدي، والدي مدير المستشفى"، يضع المبلغ أمامي على المنضدة، ويخرج،

أتنفس الصعداء، أناديها، تخرج من المطبخ، من وراء الستارة، تحمل صينية، فيها فنجان واحد، ودلة قهوة، وهي تقول: "سنشرب من فنجان واحد"، أذهب إلى عمق المحل، أحضر كأسا صغيرة، وأقول لها: "صبي لك هنا في الكأس"، تقول: "لا، أنا أحب الشرب من الفنجان، الكأس لك، هل تعرف لماذا؟" أجيبها: "لا أعرف"، ترد وهي تضحك، وتغمز بعينها: "الكأس مؤنث، هي لك، الفنجان لي، هو مذكر".

الباب يفتح، يدخل الحارس.

- تفضل، سيادة النقيب يدعوك.

أتردد، أسأله:

-ما اسم سيادة النقيب؟

-وسيم.

أهم بسؤاله:

-عنده على المنضدة مصحف، هل يصلي؟

ولكنني أصمت، ولا أسأل.

لعل هذا المصحف للقسم عليه، أو ربما هو لمجرد الخداع والتضليل، ليستجر المتهم إلى الاعتراف.

إذا خرجت من هذه البئر فسوف أصلي، وسوف أشتري نسخة من المصحف الشريف، وأضعها في المحل، وأقرأ فيها، طوال عمري ما حفظت سورة، ولا تلوت في المصحف.

إذا رزقني الله بولد فسوف أسميه "وسيم".

أما سميحة، فسامحها الله، لم أُجَنّ مثلها، لا أعرف كيف خطرت على بالي الآن، هل نسيت عفاف، كأن سميحة كانت منقذتي هنا في هذه الغرفة الخالية، مع ذلك، أنا نادم الآن، ليتني خدعتها، ليتني لم أكن صادقًا معها، قلتُ لها بغرور، وأنا صادق، وبصراحة: "تزوجت وأنا في العشرين، ولم أمارس الحرام، زوجتي هي عندي كل شيء، لا أبدلها بنساء الأرض"، غابت ولم تعد تظهر، ولا عادت تمر أمام المحل.

كنت قاسيًا، وصريحًا جدًّا، أكثر من اللازم.

أحس الآن أني أحمق، أبله.

تبدو سميحة في الأربعين من العمر، لعلها أصغر مني بعشرين سنة، حتى الآن لا أعرف إن كانت مطلقة، أو أرملة، أو عزباء.

أحيانا أحس بالندم لأني لم أنل منها.

وسوف أحس بالندم أيضًا لو أني كنت نلت منها.

٢٠

النقيب وراء مكتبه، يشير إليَّ فأقعد أمام مكتبه.

-سأتلو عليك الشكوى المرفوعة ضدك، ولا تقاطعني، استمع فقط: "أنا الموقع أدناه نجدة والد شريف، ابني شاب طيب، وساذج، شاءت الأقدار أن يفشل في دراسة الطب، لكن قلبه ما يزال معلقًا بالطب، كلّ أهل الحي يحبونه، إلا المدعو ياسر، صاحب محل أمام مدرسة الأمل، حتى مديرة المدرسة أحبت ابني، كانت كل يوم تشتري له قطع البسكويت والحلاوة من محل المدعو ياسر، لكن المدعو ياسر كان يسيء إلى ابني ويطرده، وقد دخلت عليه الخميس بعد العصر أتوسل إليه كي يبتعد عن طريق ابني، ويخفِّف من كرهه له، لكنّه حمل سكينًا، وهدَّدني بها، قال: "سأقطع رقبتك"، ولولا أني رجعت إلى الوراء، لكان طعنني بالسكين في عنقي، وخرج من وراء المنضدة، وهجَمَ علي، وخرجتُ، ومن خوفي تعثرتُ على درجات المحل، وكُسِرَتْ يدي، وعليه، أطلب التوقيف الفوري للمدعو ياسر، وتحميله نفقات علاج يدي ومصاريف المعيشة حتى أعود إلى عملي حارسًا في مستوصف الأمل".

أهم بالكلام، فيشير إلي، ويتكلّم:

-انتظر، لا تقلْ شيئًا، طبعًا، ستنكر بعض ما جاء في شكوى نجدة، وتقول عن بعضه الآخر غير صحيح، الآن استمع إلى المعروض المرفوع إلى سيادة العميد رئيس الفرع.

ويبدأ بالقراءة:

-سيادة العميد رئيس فرع الأمن الجنائي بحلب: نحن أبناء حي صلاح الدين، شارع مدرسة الأمل، أصحاب أربع محلات مجاورة لمحل السيد ياسر، وسكان ثلاث عمارات مجاورة للعمارة التي يسكن فيها، وأسماؤنا وتواقيعنا في أسفل هذا التصريح، وعددنا ثلاثة عشر نفرًا.

يتوقف عن القراءة، يضحك، يعلّق:

-طبعا هذا الرقم يتشاءم منه كثير من الناس.

ويتابع القراءة:

-"نصرّح بما يلي: نشهد بحُسْنِ أخلاق السيد ياسر، وحُسْنِ سلوكه، وطوال معرفتنا به وبأبيه من قبل، على مدى أكثر من سبعين عامًا، لم نسمع عنه أي شيء من سوء خُلُق أو عمل، يبيع، فلا يغش، ولا يكذب، ولا يسيء إلى أحد، عمله في محله، هو حَبْسُه، لا يغادره، لا إلى مقهى ولا إلى شارع، ونشهد بأن ياسر رجل طيب، لا يتعاطى السياسة، ولم يشارك في أي مظاهرة ضد الحكومة، وادَّعاء المدعو نجدة أن السيد ياسر دفعه فسقط على درجات المحل، وكُسِرَت يده، هو ادعاء باطل، فقد تبيَّن أن يده لم تكسر، ولم تُصَبْ حتى بشِعْر، وهو الذي دخل على السيد ياسر في المحل، وهدّده، وطلب منه الابتعاد عن طريق ابنه، ويزعم أن مديرة مدرسة الأمل الآنسة عفاف خطيبته، ويشيع هو وابنُه هذا بين الناس، ويزعم أنها تحبّه، وما هي خطيبته، ولا هي التي تحبّه، وهو بذلك يسيء إلى سمعتها، ونرجو منكم التكرم بالنظر بعين العطف إلى السيد ياسر".

أتكلم:

-شكرا، سيدي، هل يساعد هذا على تبرئتي، وأنا والله بريء، ولم أقل له سأقطع عنقك، قلت له سأقطع لسانك، ولا أقصد القطع الحقيقي، نعم، وأعترف كان بيدي سكين، وكنت أقطع بها الحلاوة، ربما أشرت بها، ولكن لا أقصد أي شيء آخر.

النقيب يتكلم:

-انتظر، عندي معروض آخر، بل شكوى مقدمة من أهل الحي، سأقرؤها عليك: "السيد العميد، رئيس فرع الأمن الجنائي، نرفع إليكم شكوى قانونية ضد المدعو نجدة الحارس في مستوصف الأمل، فهو يتعاطى علاج الناس بعد انصراف الأطباء والممرضين والممرضات، يُعطي الإبر، ويعلِّق السيروم، في المستوصف، بعد

انتهاء الدوام الرسمي، وفي المنازل، وفي منزله، استنادًا إلى ما يدَّعي مِن خبرة، مستغلًّا فَقْرَ الناس وحاجتهم، ونضمن هذه الشكوى شكوى أخرى ضد ولده المدعو شريف، وهو شاب مزعج لأبناء الحي، يرتدي أحيانًا صدرية بيضاء، ويعلّق في عنقه سماعة طبيب، ودائمًا في كل الأوقات، يوزّع على الناس حبات سيتامول، ويزعم أنه طبيب، ويسمِّي نفسه الدكتور ذهب، ونرجو اتخاذ الإجراء المناسب بحق المدعو نجدة وبحق ابنه شريف".

النقيب يضع المعروض تحت ناظري، ويقول:

- هذه أسماء الجيران، وهذه توقيعاتهم.

ويصمت، ثم يضيف:

-ونحن استدعينا بعضهم، وحققنا معهم، واحدًا، واحدًا، على انفراد، وأرسلنا إلى الحي من سأل وتحقق، وتأكدنا من صحة تلك المعلومات، وحصلنا على ما هو أكثر.

أقول له:

- الحمد لله، شكرًا سيدي.

يتكلَّم بنبرة هادئة جدًّا:

-المتَّهم هنا يظن أننا نتركه للزمن، يظن أننا نؤخر التحقيق معه عَن عَمْد، هو لا يعرف أننا في أثناء إقامته عندنا نجري تحقيقات مع أطراف لا يتوقّعُها، لذلك يتأخر التحقيق، المسألة لا تتعلق بالدور، إنما تتعلق بجمعنا للمعلومات، للحقائق، وهي تحتاج إلى وقت، نحن هنا معكم، لا نعرف الليل، ولا نعرف النهار، نحن في عمل دائم، ليس عندنا عيد، ليس عندنا عطلة، هل تعرف أنه الآن هناك ثلاث غرف يجري فيها التحقيق، لستُ الضابط المحقق الوحيد، نريد أن تكونوا كلّكم قبل العيد مع أُسَرِكم، لكن هناك تُهَمٌ معقدة، موضوعك سهل وواضح، هناك جرائم حقيقية تحتاج إلى وقت، ونحن مضطرون إلى قبول أي شكوى، واستدعاء المتهم

فورًا، حتى لو كان بريئًا، نحن لا نعرف، نحن نسعى إلى إظهار الحق، هذه أمور لا يجوز التقصير فيها.

يصمت، يتناول كأس ماء، يأخذ جرعة، ثم يتكلم:

-المشكلة في المتهم نفسه، المتهم لا يقول الحقيقة، حتى إنه لا يقول نصف الحقيقة، مع أن الحقيقة في الواقع كُلٌّ لا يتجزأ، لذلك نعتمد على المعلومات التي جمعناها، نكشف له عن بعض المعلومات، فيعترف، وقد نكشف نحن له الحقيقة كلها، وهو يعرفها، فيعترف، ويقرُّ بها، وهو الذي لم يصرح بها.

أتكلّم:

-أعتذر إليك، سيدي، سامحني، لم أكن صريحًا معك، كنت أخجل.

يبتسم، يتكلم:

- لا تهتم بهذا، المهم هو أنك عرفت أننا كنا نعمل، هذا هو عملنا، معك ومع كل الموقوفين.

يصمت، ينقر بالقلم على المكتب، ثم يلتفت، يسألني:

- والآن، هل تعرف مَن أعدَّ هذا المعروض؟ ومنْ أخذ التوقيعات؟

- أبو سعيد، دلال العقارات، هو أكثر أهل الحي نشاطًا، وهو صديقي الأوحد.

- لا.

- عديلي الرائد عمر.

- نعم، سيادة الرائد عمر أحضر إلى سيادة العميد، رئيس الفرع، هذا المعروض، وقدم الشكوى، لكن ليس هو الذي أعدَّه.

- مَنْ أعدَّه؟

- سؤال جيِّد، يحق لك الآن أن تسأل، ولكن لن أجيبك، عليك أن تحزر.

- طبعا أحد رجال الحي.

- لا.

لو كانت عفاف هنا لقلتُ عفاف، لكن عفاف في دمشـــق، أنا رأيتها بعيني في دمشـــق، لو كانت أمي على قيد الحياة لقلتُ أمي، ابني منير، طالب الصـــف الثالث الإعدادي، لا أتوقع هذا، ربما عفاف اتصـــلت بأحد هنا في الحي، وطلبتْ منه إعداد المعروض، ولكن ما كانت بحاجة إلى هذا، كان بإمكانها هي أن تتصل مباشـرة برئيس الفرع، لو عَرَفَتْ لجاءت فورًا بنفسها إلى حلب، وقابلت رئيس الفرع.

- سيدي، لا أعرف.

- قبل أن أقول لك مَنْ أعدَّ المعروض، وتَعِبَ في أخذ التوقيعات، ســأخبرك أن الملقَّب بالدكتور ذهب هو الآن في مشفى الأمراض النفسية والعصبية، وسيتلقَّى فيه العلاج النفسي المناسب، وأخبرك أن الحارس في المستوصف والمدعو نجدة هو الآن عندنا، هنا في زنزانة منفردة، وقد حققنا معه حتى قبل أن نحقق معك، لذلك عرفنا كل شيء، واكتشفنا أنه كان من قبل يعمل بصفة حارس ليلي في مستوصف في حي الحيدرية، وكان يمارس هناك ما كان يمارسه في حي صلاح الدين، وضج منه الناس، وشَكَوْهُ إلى مدير مستوصف حي الحيدرية، فاقترحَ نَقْلَهُ إلى مستوصف حي صلاح الدين، وسيُحال إلى القضاء، وينال العقوبة القانونية التي يستحق.

- سيدي، لم تخبرني مَنْ أعدَّ المعروض وجَمَعَ التواقيع؟

- كان عليك أن تعرف.

- لستُ ذكيًّا.

- أنت طيّب، أعدَّه أقرب الناس إليك.

- زوجتي؟

- صدقت.

المحقِّق وضعني أمام مرآة محدَّبة، مقعَّرة، مستوية، لا أعرف، رأيتُ نفسي مشوَّهًا، عرفتُ نفسي، المحقِّق دمَّرَني، بل أنا الذي دمّرْتُ نفسي، هل أستطيع إعادة بناء نفسي؟

٢١

في غرفة الأمانات أتسلّم بطاقة هويتي، والمبلغ الذي كان معي، وحزام البنطلون، وربّاطات الحذاء، وساعة اليد.

يقول لي الحارس:

- عُدَّ النقود.

أقول له:

- لا ضرورة لعَدِّها، أنتم ثقة.

- هذه هي الإجراءات، يجب أن تعدّها.

يدخل رجل، أظن أني رأيته مِن قبل، يقول لي:

- تفضَّلْ، سأوصلك بالسيارة إلى المحل، مِنْ حيثُ أخذناك، يجب أن نعيدَك.

نخرج إلى الشارع، الجو حار جدًّا، مع أننا في الأول من حزيران، كأننا في عز الصيف، كم كانت الرطوبة عالية في الداخل! كم الشمس حادة!

أنظر إلى ساعة يدي، هي الثالثة، بعد الظهر.

- هل اليوم هو الجمعة؟

- لا، هو الإثنين.

أكاد لا أصدق، أهكذا يمر بنا الزمن؟ أو هكذا نمر نحن به؟ هل حقيقة مرت بي أيام أربعة، هل نحن حقيقة في يوم الإثنين؟ أحس كأني في حلم.

أحس أن الزمن لا معنى له، بل أحس أنه لا وجود له، كثيرًا ما كنت أستغرق في المحل في التعامل مع الزبائن، ولا أحس بالوقت، وإذ بي أنا في العصر، ولم أتناول أي فنجان قهوة، حتى ولا جرعة ماء.

أدخل في السيارة إلى جواره، وينطلق بي.

الآن عرفته، هو سائق السيارة التي جاءت بي إلى الفرع.

أسأله:

-هذه سيارة أجرة، ولكن عندما جئت وأخذتني كانت سيارة مختلفة.

- نعم، أنا مساعد أول، وتلك السيارة للفرع، هذه السيارة ملك أحد الضباط هنا، وأنا أعمل عليها سائق بالأجرة، راتبي لا يكفيني، أعمل من الثالثة حتى منتصف الليل، ما أحصله ثلاثة أرباعه للضابط، وربعه لي.

-وثمن البنزين والزيت والتصليحات؟

-لا تسأل، أنت طيب، ولا تعرف، هذه كلها على حساب سيارات الفرع، عندنا محطة خاصة، ورحبة للتصليح.

يضع شريطًا في المسجل، ويصدح صوت مطربة.

سامحتك سامحتك كثير

سامحتك سامحتك سامحتك كتير..

سامحتك سامحتك بقلبي الكبير..

ومش غصب عني ولا ضعف مني

ولكن لأني بحب بضمير..

لا أعرف اسم المطربة، أفكر في سؤاله عن اسمها، ولكني أخجل.

السائق يقود بهدوء، كأنه لا يريد أن يصل قبل انتهاء الأغنية.

السيارة التي أرجع فيها، غير السيارة التي جئت بها، جئت متَّهما، وأرجع بريئًا، حتى السيارة التي جئت فيها، ما كنت أعرف إلى أين كانت تمضي بي، حتى إني كنت لا أكاد أبصر حلب، وأنا في المقعد الخلفي، أتلفت يمينًا وشمالًا، ولا أعرف أين أنا، كنت كالأعمى، الآن أنا إلى جوار السائق، أرى حلب، أحدق، أريد أن أرى أكثر، كأنني في حلم، عيناي كاميرا، أريد التقاط الصور العريضة والعميقة.

ياه، كم حلب جميلة، والله، لا أعرف هذه الشوارع، عالمي كله محلي، والرفوف العتيقة، وحلب كلها عندي هي حي صلاح الدين، أو شارع سيف الدولة، وشارع المدرسة.

السكر، السمنة، الرز، الزيت، ارتفاع الأسعار، دفتر الدين، الحاج عثمان، أبو سعيد، أبو جميل، هذا هو عالمي، عفاف عالمي الجديد.

كأني أرى حلب أول مرة.

الحرية، حقيقة، ما أجملها.

ينعطف نحو شارع المدرسة، تنتهي الأغنية.

يلتفت يسألني:

- هل هذه هي المدرسة التي كانت فيها المديرة عفاف؟

يا إلهي، كلهم يعرفون قصتي.أسأله:

-هل عليَّ مراجعة القاضي؟

- لا، الموضوع انتهى، إذا أردتَ يمكنك رَفْعُ دعوى ضد نجدة وابنه شريف لِرَدِّ الاعتبار.

-أشكرك.

ندخل في شارع المدرسة، يوقف السيارة، يلتفت إليَّ يقول:

-انظر إلى وجهي، كم تقدّر عمري؟

أتردَّد، أتكلَّم:

-حوالى الخمسين، وربما الثانية والخمسين.

يضحك، يتكلم:

-بعد شهر، أبلغ الستين، أنا أعدّ الآن معاملة التقاعد، ليس هنا السؤال، هل تعرف كم عندي من البنين؟ وكم عندي من البنات؟

-لا أعرف، أدامك الله عليهم.

-ما عندي غير زوجتي، لم أرزق منها لا ببنت، ولا بصبي، أنفقتُ الملايين في علاجها، ولا فائدة، ما فكرتُ على الإطلاق في امرأة أخرى، زوجتي كل شيء في حياتي.

أهز رأسي، متفهِّمًا مغزى كلماته.

الضابط أعطاني درسًا، بل دروسًا، والسائق يعطيني درسًا، أحس بالخجل من نفسي، ماذا أفعل؟

أمد يدي إلى جيبي، أستل مجموعة أوراق نقدية، يسأل:

-ماذا تفعل؟

-سأدفع لك أجرة توصيلي.

-أقسم بالله، الضابط قال لي: وصِّلْهُ، ولا تأخذ منه أجرة.

-الضابط وسام.

-لا، الضابط وسيم رجل نزيه، ليس عنده سيارة، وما عنده غير راتبه، اسمه وسيم، وليس وسام، هذا الضابط غير كل الضباط، لا تظن أنهم كله مثله، هو من ريف إدلب، لا يشبههم، العين عليه، هو تحت المراقبة، أنت لا تعرف، صاحب السيارة ضابط آخر.

لا أعرف لماذا يحدثني هذا الحديث، لعله يريد أن يستجرني إلأى قول شيء، وماذا سأقول؟ والله لا أعرف.

أسأله، محاولًا تغيير الحديث:

-دائما توصل المعتقلين إلى بيوتهم بعد خروجهم؟

يضحك، يعلق:

-لا أوصل أي شخص من الموقوفين في الفرع إلى أي مكان، لكن أنت حالة نادرة، ومعاملتك كانت معاملة خاصة.

هل أنا حالة نادرة؟ وما سر هذه المعاملة الخاصة؟ هل عديلي عمر أوصاهم بي.

-ما معنى حالة نادرة؟

-هنا في الفرع، كلهم عرفوا قصتك، صارت نادرة يتفكهون بها، ولا تزعل مني، أشـفقوا عليك، قضـيتك ما كانت تسـتحق كل هذا العناء، أنت لا تعرف، هنا لا يهمهم قضـية مثل قضـيتك، أنت قضـيتك ناشـفة، لذلك عجلوا بالتحقيق، تهمُّهم المشكلات الدسمة.

أسأله:

-هل تقصـد بالقضـايا الدسـمة الصـيدلي وبائع المازوت وإسـماعيل، سـائق التكسي؟

-لا، قضاياهم بسيطة، قضاياهم أعقد من قضيتك، لكنها بسيطة، أنت ما نزلت مع أصحاب القضايا الحقيقية، القضايا الدسمة هي مخدرات، تهريب عملة، أسلحة، تبييض أموال، سرقة، اغتصاب، قتل، قضيتك عبارة عن مزحة، لا أكثر.

-حتى الضابط صاحب السيارة عرف قصتي؟

-نعم، كلهم عرفوا قصتك، والضابط صاحب السيارة هو أوصاني بك، وأنا كنت سأوصلك، من غير ما يطلب مني.

-ما اسم الضابط صاحب السيارة؟

- لا تسأل، لن تفيدك معرفة الاسم.

يناولني بطاقة، وهو يقول:

-هذه بطاقة فيها اسـمي، سـائق تكسـي، اطلبني لأي مشـوار، أنت وزوجتك والأولاد، واتصل بي عند أي مشكلة، أنا في خدمة الطيبين، من أمثالك، لكن لا تخبر أي شـخص أني مسـاعد أول في الفرع، قل لهم سـائق سـيارة أجرة، حتى زوجتك لا تخبرها.

ينطلق بالسيارة.

نقترب من المحل، يشير إلى المحل، يتكلم:

-هذه زوجتك، ومعها الأولاد، على درجات المحل، خرجوا لاستقبالك.

-كيف عرفوا أني خرجت؟

يضحك، يعلق:

-نحن أخبرناهم، قلنا لهم: أنت في الطريق إليهم.

نصل إلى المحل.

تنتهي الأغنية، يستل الشريط من المسجل، يضعه في جيبه، أسأله:

-من هذه المطربة؟

- ما عرفتها؟

- أنا لا أعرف غير صباح فخري.

وتعرفت على فيروز، عفاف عرفتني عليها، آه، أين أنت يا عفاف، ليتك الآن في حلب، لأحكي لك عما جرى معي.

- هذه أصالة، رعاها الرئيس الخالد، بعد وفاة والدها مصطفى نصري، وبعد ما حققت النجاح، ذهبت إلى القاهرة، وانشقت عن النظام، صارت معارضة.

يستل الشريط من جيبه، ويمد يده إلي بالشريط، وهو يقول:

-تفضـــل، خذه هدية مني، اســـمعه في البيت أنت وزوجتك، حتى تعرف أنك سامحتها، أو هي سامحتك.

أضع يدي فوق يده، أبعد عني الشريط، أقول له:

-أرجوك، لا أريد هذه الهدية.

-خذه، ولا تخف.

-أرجوك، أعتذر، لا أريده.

يعيده إلى جيبه وهو يضحك.

أنظر إليه مدهوشًا، أسأله:

-ألا تخاف؟

يعيده إلى المسجل، يعيد تشغيله، يقول:

-انتظر، قريبًا، كل شيء سيتغير.

٢٢

يا إلهي، محل الأخ ياسر مغلق، مع أن العيد اقترب، والمتوقع أن يكون عنده زحام في المحل، ترى لماذا محله مغلق؟ هل هو مريض؟ ولكن أي مصادفة ساقت قدمي للمرور بشارع المدرسة؟ أنا ذاهبة لزيارة زميلتي هدى، نعم، بيتها في الشارع الثاني الموازي لشارع المدرسة، كان بإمكاني الوصول إليها من الطرف الآخر، من دون المرور بشارع المدرسة، على كل حال، من الطبيعي أن أمر بشارع المدرسة، لِمَ لا أمر به؟ وقدمي أَلِفَت المرور به كل يوم، هو شارع المدرسة، وليس شارع محل ياسر، أنا أعرف أن المدرسة مغلقة، لعلي لاشعوريا مررت بهذا الشارع لأطل على مدرستي.

أوه، يا إلهي، ولماذا أنكر، ما أزال أحمل في نفسي التقدير للأخ ياسر، وأنا أقول الأخ، ومن حقي أن أقلق عليه، مشاعري ليست ملكي، هو القلب، يميل، لا بد أن يميل.

كل المعلمات حدثوني عن ياسر، طيب، وصادق، وأمين، مررت أمام محله عدة مرات، طويل، عريض الكتفين، حاد النظرة، حليق الذقن، دائمًا في داخل المحل، ما رأيته مرة خارج المحل، بعض أصحاب المحلات يقعدون خارج المحل يرقبون نساء الحي، هو رجل شريف، أعجبني، عرفت أنه غير مثقف، ما المشكلة، المهم الأخلاق.

خمس سنوات مرت، على استشهاد زوجي، وما تقدم أحد إلى خطبتي، ست سنوات، أصبحت في الأربعين، الشباب هاجروا، أو اعتقلوا وهم في السجون، أو في الجيش، والتسريح بعد تسع سنين، لا أحد يتزوج، حتى البنات أصبحن عانسات، ومن سيتزوج أرملة؟ هذه هي عقلية الرجال في مجتمعنا.

زوجي كان معلمًا، زميلي في المدرسة، يرحمه الله، استشهد في حماه، حاول التملص من الخدمة العسكرية، لكن دورية أوقفته، وساقوه فورًا إلى الجيش، ما عشنا معًا غير ستة أشهر، عليه رحمة الله، بدلة العرس ما لبستها غير ليلة العرس، أبوه عرض علي الزواج من أخيه، فكرت في الموضوع، ما قبلت، قلت لنفسي: "كيف يقبل هو الزواج من زوجة أخيه؟".

مهند، زوجي، يرحمه الله، كان يخطط للهرب إلى إدلب، نهرب معًا، أنا متأكدة أنه قتل غدرًا برصاصة من قائد مجموعته، الضابط قال لنا: "مهند بطل، عمل على قمع المظاهرة في حماه، لكن رصاصة قناص اخترقت الخوذة من وراء رأسه، من القحف"، هكذا قال، وأشار إلى قفا رأسه، لم يسمحوا لوالده بفتح التابوت، أنا متأكدة أن قائد مجموعته ضربه برصاصة في رأسه من خلف، أنا متأكدة من أنه كان يتردد في إطلاق النار على المتظاهرين، عليه رحمة الله، كان دائمًا ينتقد النظام، ولا شك كانت التقارير تكتب ضده.

الضابط نفسه اتصل بي وطلب مني مراجعته في الفرع، فرع الأمن العسكري، ذهبت معي أخي، استقبلنا ببشاشة، وقدَّم لنا القهوة، وسألني عن عملي في المدرسة، وعرض عليَّ نقلي إلى مدرسة أقرب إلى بيتنا، كنتُ جافة معه، وحذرة جدًّا، خفتُ على أخي، أعرف أخي، هو ناقم أيضًاعلى النظام، ومعارِض، لكنه معارِض في قلبه، لم تطل الزيارة، بعد يومين اتصل بي بالهاتف الجوال، قال: "لكِ عندنا درع تكريم، راجعيني بعد الساعة السابعة، لاستلامه"، قلتُ له: "الأفضل الاحتفاظ به إلى حين إقامة حفل عام لتكريم أُسَرِ الشهداء".

تكلمت مع المديرة، المديرة نوال، أعرفها على علاقة مع الجهات الأمنية، فرق كبير بينها وبين المديرة عفاف، أين الثرى من الثريا، عفاف أعادت لنا كرامتنا، نحن كل المعلمات، ذوق وأخلاق ومعاملة راقية، خسارة، سافرت، الله يسعدها، توسلتُ إلى المديرة نوال أن تطلب من الضابط أن يكف عن مضايقتي، ولم يتوقف، أخيرًا

اشتريت خاتمًا ذهبيًّا، كلفني رواتب سنة كاملة، ثم طلبت منها أن ترسله إليه، بعدها لم يعد إلى الاتصال بي.

لا أعرف لماذا أعجبت بياسر، عرفت أنه متزوج، وليكن، أعيش معه في المحل، دخلت عليه في المحل عدة مرات، عرفت أن هناك في عمق المحل ما يشبه المطبخ، أنا مستعدة للعيش معه في هذا المطبخ، حاولت عدة مرات التودُّد إليه، لا أعرف هل هو أبله، غبي، يتغابى، بارد الأعصاب، ليس عنده حس ولا شعور، قدمت له قطع السكاكر بين يدي، توقعت أن يمسك كلتا يدي، وذهبت إلى أبعد من هذا، غامرت، ودخلت إلى عمق المحل، وصنعتُ له فنجان قهوة، وقلت له نشربه معًا، لا أعرف كيف اخترعت تلك المواقف، حتى زوجي، رحمه الله، لم أخترع معه مثل هذه المواقف، كنت أحاول التلميح له بفكرة الزواج، وصلت تقريبًا إلى حد التصريح، الحقيقة هو رجل شريف، وفيٌّ لزوجته، أعجبني فيه هذا، رجل شهم، وأنا ما كنت لأسمح له أن يلمس ظفري، لكنها الحقيقة كانت محاولاتي جريئة، لو كان مثل الشباب ما كنت تجرأت عليه، لا أنكر، الحقيقة، الحقيقة هو رجل شهم وشريف.

نعم، أنا معلمة، وعندي راتبي، ووالدي تاجر بائع ألبسة رجالية، اشترى لي شقة صغيرة في حي حلب الجديدة، مطلة على الشارع الرئيسي، وفرشها لأجلي بأجمل فرش، لكن هذا كله لا يكفي، وجود الزوج أمر آخر.

الأب لا يدوم، أمي استشهدت قبل عشر سنوات، ذهبت إلى المعبر في حي المشارقة، لتزور أختها في حي الكلاسة، فسقطت برصاصة قناص، أبي تزوج بعدها، هذا من حقه، كنت أخدمه بعيوني، لكن الزوجة غير البنت، وإخوتي الثلاثة كل واحد منهم في بيته مع زوجته وأولاده، وأنا من حقي أن أتزوج، ويكون عندي بيت ورجل وأولاد، ولا يمكن الاستمرار في العيش مع زوجة الأب.

كل يوم أمر أمام باب المحل، ولا ألتفت، الله يسامحه، أنا أحترمه، ولم أندم، كنت سأندم لو تزوجته، ربما كنت سأكون سبب دمار حياته، قد تدمر زوجته حياته

وحياتها، حتمًا لن تقبل بوجود ضرة، لا أعرف كيف تهورت، على كل حال، العبرة بالنتائج، أنا الآن مطمئنة، لن أغامر مرة ثانية.

لكن، لا أعرف لماذا محله مغلق، لا أستطيع السؤال عنه، من واجبي السؤال عنه، هل قلت من واجبي؟ يا إلهي، لا بد أن يبقى في النفس شيء، هذا دليل أني لست ناقمة عليه، ولا حاقدة، ولا نادمة، هل أسأل صاحب المحل الذي بجواره بحجة شراء علبة سمن؟ والله أخجل من السؤال.

على درجات المحل أعانقهم، أعانقهم طويلًا.

أصعد معهم إلى الشقة، أستحمّ، أحلق ذقني، أتناول العشاء.

في الليل تنخفض درجات الحرارة، يعتدل الجو، أغلق النافذة الوحيدة لغرفة النوم، أطفئ النور.

تقول لي زوجتي:

- نحن في الطابق الرابع، نطل على باحة المدرسة، ليتك تترك النافذة مفتوحة، دعنا نستمتع بالنسمات القادمة من جهة الغرب.

زوجتي تختبئ في صدري، تهمس:

- أرأيت ...النسمات رقيقة باردة قليلًا، لكنها منعشة.

أهمس:

- أجمل منها هذا الدفء الناعم.

نور الفجر المتألق أفتح عليه عيني، ينعشني شذى مميز لقهوة جديدة، تدخل زوجتي.

-تعال إلى الشرفة.

شرفتنا عارية، يتوسطها كرسيان بينهما منضدة خشبية صغيرة، تعلوها صينية فيها فنجانان، وكأس ماء.

شذى القهوة يعبق.

إطلالة جميلة.

المدرسة هادئة، لا أحد فيها، باحتها خضراء، الأشجار تتمايل بهدوء، نسمات صباحية منعشة.

لعلها هذه هي المرة الأولى التي أقعد فيها في هذه الشـــرفة مع زوجتي، إطلالة جميلة، لماذا أحرم نفسي من شرب القهوة فيها كل صباح؟ لا أعرف غير المحل؟ أنزل إليه في الســادســة والنصــف، ولا أغادره حتى العاشــرة؟ وفي الشــهور الأخيرة صــار المحل بيتي ومأواي، صار حبسي، صار المحل كل عالمي.

أنا الذي جنيت على نفسي وعلى زوجتي.

أقول لها:

-أسأل الله أن تكوني قد أصبحت، بعد هذه الليلة، وأنت حامل.

-وإذا حملتُ ببنت؟

-أهلًا وسهلًا بها، هي هبة من الله.

-وماذا ستسميها؟

-أتمنى لو أسميها باسمك، أمينة، لكن...

أصمت، ثم أنطق:

-أسميها أميرة.

-وإذا حملتُ بصبي؟

-دعينا الآن من قصة الصبيان والبنات، يكفينا ولد واحد، لا أريد لابني منير أن يذهب إلى الجيش، أريده مثلي، يظل وحيدًا.

تصمت، ثم تسأل:

-وهل تظن أن هذا النظام سيبقى إلى الأبد؟

لا أعرف، أظن أن أحفادي ســيعيشــون في ظل هذا النظام، وربما أحفادهم أيضا، لا أعرف.

أتجاهل السؤال.

آخذ أخر رشفة من الفنجان، أنهض، ألتفت إلى أمينة، أقول لها:

-سامحيني.

-سامحتك.

-من كل قلبك.

- من كل قلبي، والله سامحتك، سامحتك.

أتذكر الأغنية، أقول لها:

-لو أجيد الغناء كنت غنيت لك أغنية أصالة: سامحتك، سامحتك.

-أين استمعت إليها؟

-أمس، في سيارة رجل الأمن، وهو يوصلني إلى البيت.

تقف، تلتفت إلي، مدهوشة تسألني:

-في سيارة رجل الأمن؟

-نعم.

-لا أصدق.

-أقسم بالله، وأخرج الشريط من جيبه، ووضعه في المسجل، وقبل أن أنزل، سحبه من المسجل، وأراد تقديمه لي هدية، ولكن خفت، ولم آخذه.

علائم البشر تملأ وجهها، تبتسم، تعلق:

-الحمد لله.

أدهش أسألها:

-ما معنى الحمد لله؟

تسير أمامي نحو الداخل، وهي تعلق:

-أنت لا تعرف، أصالة معارضة، منشقة عن النظام، ووجود عنصر في الأمن الجنائي، يحمل شريط أصالة في جيبه، ويسمعك إياه، هذا كله يبشر بالخير.

أحدثها عن الضابط وسيم، تعلق:

-الدنيا بخير، ما كنا نتوقع هذا، الفرج قريب.

أرسل ابني إلى محل مهروسة في حي الأعظمية، يرجع وقد اشترى لنا الشعيبيات والمأمونية.

إفطار الصباح.

البنات أزاهير متفتحة.

أمينة هي الحقيقة، عفاف هي فكرة.

أمينة مني أنا، وأنا من أمينة.

ليلة أمس كنا نستمع إلى فريد الأطرش في التلفزيون وهو يغني:

أضـــنيتني بِـالهَجْرْ .. مَـا أَظْلَمَـكْ ... فَارْحَمْ عَسِـى الرَّحْمَنُ أَنْ يَرْحَمَكْ

مـولاي حَـكَّـمْـتُـكَ فِي مُـهْـجَـتِي ... فَـارْفقْ بِهَـا يُفْـدِيْـكَ مَنْ حَكَّمَـكْ

مَـا كَـان أحْـلَى قُـبُـلاتِ الـهَـوَى ... إِنْ كُنْتَ لا تَذْكُرُ فَـاسْـــأَلْ فَمَكْ

تـمُـرُّ بِـي كَـأَنَّـنِـي لَـمْ أَكُـنْ ... ثَغْرَكَ أَوْ صَـــدْرَكَ أَوْ مِعْصَـــمَكْ

لـوْ مَرَّ سَـــيْفٌ بَيْنَنَـا لَمْ نَكُنْ ... نَـعْلَمُ هَـلْ أَجْرَى دَمِى أَمْ دَمَـكْ

سَـــلِ الـدُّجَى كَمْ رَاقَنِي نَجْمُـهُ ... لَمَّـا حَكَى مَبْسَـــمَـهُ مَبْسَـــمَـكْ

يَـا بَـدْرُ إِنْ وَاصَـــلْتَنِى بِـالْجَفَـا ... وَمِتُّ فِي شَـــرْخِ الصِـــبَا مُغْرَمَكْ

قُـلْ لِلـدُّجَى: مَـاتَ شَـــهِيْدُ الْوَفَـا ... فَـانْثُرْ عَـلَى أَكْـفـانـه أَنْـجُـمَـكْ

فجأة، نهضت أمينة، ذهبت إلى المطبخ، ولم ترجع إلا بعد انتهاء الأغنية.

كان يجب أن أقول لها: هذه الأغنية أهديها إليك، أو أقول لها شـــيئا آخر، لا أعرف، ماذا كان يجب أن أقول لها.

في الحقيقة لا أعرف من هو فريد الأطرش، ولم أســـتمع إلى الأغنية من قبل، ولولا أن المذيعة قالت: سنستمع الآن إلى فريد الأطرش في أغنيته "أضنيتني بالهجر"، كنت سأسل أمينة: من هذا المطرب.

عمري كله أمضـــيته بين رفوف المحل، والبيع والشـــراء ودفتر الديون، المحل كان قبرًا لي على الحياة.

الأغنية في الحقيقة كانت تعبيرًا عن حالها أصـــدق تعبير، لذلك لم تســـتطع الاستماع إليها.

أمينة هي الأمن والأمان، عفاف هي الفوضى والقلق.
في صدري كناري ينبض، يغرد، هويمزق أضلاعي، يطير نحو أمينة.
هو وحده لأمينة، لأمينة وحدها.

٢٣

على غير عادتي، أنزل إلى المحل متأخرًا.

في الصباح أَجِدُ الدنيا متألقة مشرقة، الشمس ساطعة بهاء، كأنها شمس جديدة أشرقت على الكون.

أبو سعيد يدخل المحل متألِّقَ الوجه، يحمل صندوقًا كرتونيًا، يعانقني يهنئني، ثم يعلِّق معاتبًا:

-أخي ياسر، لي عليك عَتَبُ المحبة، هل تقبل العتب؟

- تفضل.

- تَعِدُني ألَّا تستاء مني؟

- أَعِدُك.

ينزل ابني يحمل لنا القهوة، نقعد في المحل متقابلين، نرتشف القهوة.

أبو سعيد يرسل زفرة طويلة، ثم يتكلّم:

-ثمانية أشهر تمرّ، وأنتَ عاشق متيم، وأنا لا أعرف، كيف أخفيتَ عني هذا العشق؟ وأنا أعزّ أصدقائك.

-هي نفسها لا تعلم، ولا تعرف.

- ما هذا العشق إذن؟

-جنون، يمكنك تسميته إذا شئتَ الجنون، هو الجنون.

- وتهجرُ زوجتك من أجل هذا الجنون؟

-أنا هجرتُها لأنها لا تنجب إلا البنات.

يأخذ رشفة من فنجانه، يصمت طويلًا، ثم يتكلم:

- اسمع، أرجوك، هذا غير صحيح، أنت كنتَ تعيش مع زوجتك وأولادك وفي عملك بأمان واطمئنان، حياة هادئة، لا يعكّر صفوها شيء، محل يوفر لك معيشة

مقبولة، بل جيدة، زوجة هي ربة بيت، طيبة، مريحة، هادئة، لا تكلّفك ما لا تطيق، أنا أعرف، وبناتك ما زلن صغيرات، كالحمامات، لا شيء يعكر حياتك، أنتَ أردتَ، من حيث لا تشعر، إثارة مشكلة، لتكسر هذا الهدوء، هذا هو طَبْعُ الإنسان، يصطنع المشكلاتِ ليملأ حياته، ويَشْغَلَ نفسه.

آخذ رشفة من القهوة.

أردُّ عليه، هذه المرة بقوة، لا أعرف كيف واتتني:

-لماذا لا تقول إن عفاف هي السبب؟ وأنت أجَّرْتها الشقة فوق محلي.

-أنتَ تحاول تحميلي المسؤولية، أنتَ كنتَ ستفعل هذا حتى لو لم تكن عفاف موجودة.

-أنت تحاول تبرئة نفسك.

-لستُ متهمًا، حتَّى أبرئ نفسي، أنا أجَّرْتُ عفاف الشقة، لأنّ هذا عملي.

أضحك، لا أريد أن يتحوَّل هذا الجدل إلى خصام، أبو سعيد أعز صديق، بل هو الصديق الوحيد، آخذ رشفة من القهوة، أعلّق:

-عفاف جميلة، أنا أحب الجمال، لذلك أحببتُها.

-أنت مستعد لتُحبّها، حتى لو كانت غير جميلة، أنت لم تحبَّها لأنها جميلة، أنتَ أحببتها لأنها نشيطة، وصاحبةُ دور وفاعلية في المجتمع.

يصمت، يرشُف قهوته، ثم يضيف:

-وما سميته أنا الحب، أو سميته أنت الجنون، هو في الحقيقة هربٌ من الواقع، واقعك الضيق المحدود.

أهم بالكلام، يسرع إلى القول:

-اسمح لي أن أقول لك، أنتَ نقيّ، طيّب، عالَمُكَ كلّه هو هذا المحل الصغير، زبائنك هم سكان هذا الحي البسطاء، أنت تعرف أني متخرّج في المعهد المتوسط للتجارة والاقتصاد، بصراحة، لا الدارسة أفادتني، ولا الشهادة نفعتني، العلاقة مع الناس هي التي أفادتني، أنا، بسبب عملي دلال عقارات، عَرَفْتُ أناسًا من مختلف

الطبقات والشرائح، كما يُقال: الغني والفقير، التاجر والعامل، عدا الأخلاق والطبائع والسلوك وأساليب التعامل، أنا دخلتُ شقةً كثيرة، وتعرّفْتُ على أُسَر كثيرة، رأيتُ أشكالًا وألوانًا من البشر.

أخذ رشفة من القهوة، ثم أضاف:

-عدا هذا أنا عندي كل يوم قبل النوم، ساعة أو أكثر للمطالعة، أظنك شاهدت المكتبة الصغيرة في مكتبي، حتى في المكتب، أنا أقرأ، وفي البيت عندي مكتبة أكبر، أنا أقرأ في التاريخ والسياسة والتربية وعلم النفس، كتب التجارة والاقتصاد وزَّعْتُها، مجرَّد كلام نظري، ما نفعتني في شيء، أنت، وأرجو ألا تستاء من كلامي، تعيش في عالم محدود، بيتك فوق محلك، ومحلك تحت بيتك، من البيت إلى المحل، ومن المحل إلى البيت، لا تعرف غير درج العمارة، لا تعرف ما هو أبعد من شارع المدرسة، لذلك رأيت في عفاف عالمًا آخر، أدهشتكَ، فتعلَّقتَ بها، إلى حدِّ الجنون.

مرة أخرى، أردتُ أن أردَّ عليه بقوة، قلت له:

-لا، لم أصل إلى حد الجنون، كانت مغامرة.

أضاف:

-من قبل قلت هو الجنون، والآن تقول مغامرة، على كل حال: المغامِر يختار المغامرة بنفسه، ويغامِر في هدف رفيع، يزيده شرفًا، ويعمل للوصول إليه، ولا يُلام إذا لم يَصِلْ، أنا أحفظ من أيام الدراسة بيتًا، لا أتذكر اسم قائله، ربما هو المتنبي، أو لعله أبو تمام، المهم هو قوله:

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُوم فلا تقنعْ بما دُونَ النُّجوم

ما قمتَ أنتَ به، ليس مغامرة، هو الجنون، وأنت قلت قبل قليل هو الجنون.

أخشى أن يقول لي بعد قليل: عليكَ أن تذهب بنفسك إلى مستشفى المجانين، وتقعد بجوار الدكتور ذهب، فقد سبقك إليها، لكن أظنه لا يعرف أن الدكتور ذهب صار هناك.

بدأت أشعر بالضيق، لا أعرف إلى أين سيصل بنا هذا الحوار المُمِلّ، لن أرد عليه، لا أريد خسارته، هو صديقي الأوحد.

أرشف آخر ما في الفنجان، أضيف، وأنا عازم على إنهاء الحديث:

-أشكرك، الحقيقة، أنت أعزّ صديق، وهذا الحوار هو دليل حرصك على صديقك.

يبتسم، يرشف آخر ما في فنجانه، ثم يضيف:

-كان لا بدَّ من هذه المصارحة، أنا صادق معك، ومخلص، وليس لي أي غرض.

أقول له بهدوء، ولكن أحس بارتعاش في صوتي:

-أود أن أطمئنك، المغامرة انتهت، وها أنا ذا عدتُ إلى سرير الأمان.

يضحك، يقول:

-سأقول لك، وأرجو أيضًا ألا تسيء فهمي، أنت مثل طفل، لم يغادر سرير الطفولة، وأمّه ما تزل تهز له بيمينها السرير، وتغنّي له.

لا أعرف، أكاد أستاء من هذا الكلام، لكن أفهم منه أنه يقصد أني ما أزال بريئًا، لم تُفْسِدْني الحياة، لا بأس، أنا كذلك، وسوف أظل على ما أنا عليه، وأسأل الله ألّا أتغيَّر، بل أسأل الله أن أظل على ما أنا عليه حتى منتهى الأجل.

ينهض، يعانقني، يشدّ على يدي، ثم يناولني الصندوق، وكانت عيناي تحومان حوله، متشوّقًا لمعرفة ما فيه، أسأله:

-ما هذا؟

- كما ترى حاسوب، تركَتْهُ لك عفاف، كما كانت وعدَتْكَ، وتركتْ لي واحدًا مثله.

أتذكّر، كانت وعدتني بحاسوب، قالت لي: نحن في عصر المعلوماتية، حتى لو لم تتابع دراستك، عليكَ أن تتعامل مع الشبكة، في الحاسوب ستجد العالم كله بين يديك، ابحثْ في غوغل عن أي معلومة فسوف تجدها.

أسأله:

- قُلْ لي، أين عفاف؟ بحثتُ عنها في دمشق، فلم أجدها.

- سمعتُ بسفرك، تسرّعتَ، لو صارحتني بعزمك على السفر، لو شاورتني، كنتُ نصحت لك ألا تسافر.

- لماذا؟

-عفاف لم تسافر إلى دمشق، ليس لها أحد في دمشق، سافرت إلى بيروت.

-ولماذا لم تخبرني؟

-وهل كنت ستلحق بها إلى بيروت؟

-حتما، كنت سألحق بها.

يضحك، يعلق:

-حتى لو لحقت بها إلى بيروت، ما كنت ستجدها، ستكون قد أقلعت بها الطائرة إلى تونس، أو ربما تكون قد حطت بها في تونس.

أسأله مدهوشًا:

- ولماذا تسافر إلى تونس؟

- عفاف كانت مبعوثة من دمشق إلى حلب على حساب جامعة الدول العربية، لتتدرب سنة دراسية، على التنمية الثقافية والمجتمعية.

ويصمت، ثم يتكلم:

-أنا حدثتك عن هذا من قبل.

- لا، لم تحدثني، وكيف تعرفت أنت عليها؟

- ابن عمي في دمشق هو طلب مني أن أختار حيًّا شعبيًّا في حلب، لكي تتدرب فيه، وهو نفسه من أبناء حلب، تاجر بناء، حلب نشفت، هاجر نصف سكانها، إلى تركيا ألمانيا مصر السودان، وهو هاجر إلى دمشق للعمل فيها، فقلت لنفسي: حي صلاح الدين، الحي الذي أعيش فيه، هو أكثر الأحياء شعبية، والأكثر كثافة في السكان، لذلك رشَّحْتُ هذا الحي، عفاف عملتْ على تطوير هذه المدرسة، وخمس

مدارس أخرى في الحي نفسه، وزَّعتْ عشرين حاسوبًا على مديرين ومديرات ومعلمين ومعلمات، طبعًا، هذا كله على حساب جامعة الدول العربية.

يصمت ثم يضيف:

- والله، أنا حدثتك عن هذا كله، وأنا أُيد الآن الكلام، ولكنك تنسى.

- وأين هي الآن؟

- في مكتبها، مدير هيئة التنمية الثقافية والمجتمعية في منظمة البيئة في جامعة الدول العربية.

- في القاهرة؟

- مقر الجامعة العربية في القاهرة، لكن في تونس مقر منظمة البيئة للتنمية الثقافية والمجتمعية.

- وكم ستبقى هناك؟

-ست سنوات، قابلة للتجديد، هي الآن مدير هيئة التنمية الثقافية والمجتمعية، وقد تصبح المدير العام لمنظمة البيئة.

- وهل معك رقم هاتفها؟

يضحك، يسأل:

- وهل عندك في هاتفك رقم هاتف زوجتك؟

- طبعا، هو موجود.

- رقم هاتف زوجتك يكفيك.

يهم بالمضي، أستوقفه، أقول له:

-لم تسألني عما جرى معي هناك.

يضحك، يتكلم:

-أعرف كل شيء، النقيب وسيم حقق معك، والمساعد الأول موسى الأعرج هو الذي أوصلك بسيارة أجرة، صاحبها الملازم حمدي، والدكتور ذهب الآن في مستشفى الأمراض العقلية، وأبوه نجدة ما يزال هناك، ولما عرف بعض سكان حي

الحيدرية بتوقيفه في الأمن الجنائي، رفعوا شكوى ضده، ومدير مشفى الأمل هنا في الشارع الخلفي موقوف أيضًا رهن التحقيق.

الآن تأكد لي، أبو سعيد جاري، الذي أعرفه منذ أكثر من عشر سنين، هو منهم، ولكن ما كنت أعرف.

أقول له:

-لكن ما لاحظت عرجه.

قال مؤكدًا:

-يعرج على رجله اليسرى، كان في فرع الأمن العسكري، لسانه طويل، لا يسكت، دائما ينتقد، كسرت رجله تحت التعذيب، حكم عليه بالسجن سنة، بعدها نقلوه إلى الأمن الجنائي.

أكثر شيء آلمني بعد عودتي إلى المحل هو موت الكناري، أربعة أيام وأنا في قبو الأمن الجنائي، وهو في المحل، والباب مغلق عليه، لا طعام، ولا شراب، رجعت فرأيته ملقى في أرض القفص، مغمض العينين، عرفت فورًا، أنه مات.

أعطيت القفص فارغًا لصديقي أبو سعيد.

قال لي:

-ما رأيك في كناري جديد؟ أشتريه لك غدًا؟ هدية مني.

قلت له:

-بعد عفاف لا أقبل هدية من أحد.

٢٤

مرت أيام العيد سريعة.

كان أجمل عيد مر بي في حياتي كلها، مع أنني كنت أمضي طوال النهار في المحل.

ليلة العيد نزلت إلى سوق سيف الدولة، اشتريت للأولاد الثياب الجديدة، اشتريت لهم حلويات ما كنت أشتريها من قبل، اشتريت للبنات الألعاب والهدايا، اشتريت كل ما كانت تطلبه أي واحدة منهن، كانت مغامرة، ونحن في سوق سيف الدولة كنا نسمع أصوات قذائف وانفجارات، قريبة، بعيدة، لا نعرف أين تقع، لكن كان علينا أن نفرح بالعيد، زوجتي كانت مكتئبة، صامتة، أحيانا تقول لي:

-لا ضرورة لشراء كل ما تطلبه البنات.

مرة قالت لي، وهي تشدني من يدي:

-هيا، لنرجع إلى البيت بسرعة، قبل أن تتطور الأمور.

ألححت عليها كي أشتري لها معطفًا أو ثوبًا أو حذاء، رفضت، أقسمت أنها لا تريد شراء شيء.

-العيد للأولاد، ليس لنا.

هكذا قالت لي.

ونحن في طريق العودة إلى البيت قالت:

-أيُّ عيد هذا؟ لا أحس للعيد أي معنى.

وزفرت، ثم أضاقت، ونحن نصعد الدرج إلى الشقة:

- لن نهنأ بالعيد وشعبنا مُهَجَّر في ألمانيا وتركيا، ونحن هنا تحت الذل والخوف والقهر، عدا الغلاء، ولا ننسى شبابنا في السجون والمعتقلات، وشبابًا قضوا تحت التعذيب، وآخرين غرقوا في البحار، هل هذا عيد؟

في أيام العيد كنت أفتتح المحل، منير يقف معي في المحل يساعدني، البنات ينزلن إلى المحل ويصعدن إلى الشقة، وما يلبثن أن ينزلن ليصعدن، حاملات أكياس رقائق البطاطا والشيبس والأندومي والسكاكر، كأنني لم أملأ لهن البيت بالألعاب والهدايا والحلويات.

يا إلهي، ما أحلاهن، كأنهن فراشات، أو حمامات.

في أول يوم دوام بعد العيد يدخل إلى المحل رجل، يسألني:

- هل السيدة أمينة عز الدين تسكن في هذه العمارة؟

- نعم، وأنا زوجها.

- تفضّلْ، هذا كتاب الموافقة على تعيينها مُشرفة في روضة النجاح، وعليها أن تباشر عملها بعد انتهاء عطلة العيد مباشرة، هل يمكن أن توقّعَ هنا بدلًا منها؟

أقول له:

- آسف، لن أَتَسَلَّم الكتاب، ولن أوقّع.

الموظف يدهش، يسألني:

- ألا توافق على عملها مُشْرفة؟ فرصة، مئات الصبايا يتنافسن على مثل هذا العمل.

- أوافق، ولكن أرجو أن تصعد أنت بنفسك إلى الدور الرابع، لتبلِّغَها بنفسك الكتاب، ستكون مفاجأة لها.

أجد سميحة فجأة أمامي، ما إن خرج الرجل، حتى دخلت هي، كأني لمحتها قبل قليل، أظنها راحت من بعيد أمام المحل وجاءت مرتين، كأنها كانت متردّدة، أو لعلها كانت تنتظر خروج الرجل. بل أظنها مرت أمام المحل، على الرصيف المقابل، أول أيام العيد، التفتت، ومضت، لم تدخل، أنا لا أظن، أنا الآن متأكد.

-أهلا بالأخت سميحة.

-كل عام وأنت بخير.

- وأنت بخير، شكرًا لك.

تضيف وهي تبتسم بعفوية، وكأنها تقدم تبريرًا لزيارتها:

-كنتُ في زيارة معايدة لزميلتي هدى، بيتها هنا قريب من محلك، فرأيت من واجبي المرور بك وإلقاء التحية والسلام.

- أهلا بك في كل وقت، أذكرك دائما بالخير، ولا أنساك.

حتى وأنا في الأمن الجنائي ذكرتك، للأسف كنت فجًّا معك وقاسيًا، ولكن هكذا جرت الأمور، والحمد لله.

أدعوها إلى فنجان قهوة، فتعتذر.

أحس أن لديها كلامًا، تتردد، لكنها تكتفي بالقول:

-الحمد رأيتك بصحة وسلامة، وكل عام وأنت بخير.

ترى هل مرَّتْ في غيابي، وأنا في الأمن الجنائي، فرأت المحل مغلقًا؟ ومرت اليوم عن قصد لتطمئن؟ في نبرتها حنان ودفء، هل أحدثها بما كان وما جرى؟

-هل نراك هنا في المدرسة العام الدراسي القادم، نتمنى أن نراك مديرة، الآنسة عفاف سافرت إلى تونس.

تعلق:

-أعرف هذا، هي حدثتنا قبل سفرها، وفقها الله، وأنا لا أطمح إلى أي عمل إداري.

أحاول إطالة الحديث معها، لا أعرف لماذا، أقول لها:

-العام القادم سأحضر تشكيلة جيدة من كتب الأطفال، والدفاتر المدرسية.

تعلق:

- إلى العام الدراسي القادم يخلق الله ما لا تعلمون.

٢٦

أبو سعيد لا يتركني، كل يوم يفاجئني بجديد.

يدخل المحل، مشرق الوجه، يتأمل الرفوف، ينظر إلى مدخل المحل، يتأملني، ينظر إلى عمق المحل، أقول له سائلًا:

-في رأسك فكرة، وعندك كلام؟

-نعم.

-تفضل، تكلم.

-كنت ســأطرح عليك الفكرة قبل العيد، ولكن أجَّلْتُها، أعرف أن العيد بالنسبة إلى المحل فرصة للبيع والكسب، والآن العيد انتهى.

-ما الفكرة؟

-أقترح عليك نفض المحل، تغيير الواجهة، والباب، ووضــع مظلة كبيرة أمام المحل، تغطي الرصــيف، مع إضــاءة خارجية، تلفت الأنظار إلى المحل، وتغيير هذه الرفوف القديمة، وشراء ميزان رقمي.

أعلق ممازحا:

-وتغيير صاحب المحل.

-تلقائيا أنت ســتتغير، ســتنعش روحك، وتجدد حياتك، ونضــع لافتة كبيرة بخط عريض، ونكتب عليها سوبر ماركت، ونختار اسما للمحل يلفت الأنظار.

أعلق:

-محل عفاف، أو محل العفاف.

يرد بجدية:

-أنا لا أمزح معك، يجب أن تنسى، فكر معي في اسم يلفت الأنظار.

-قبل ذلك كله، الأهم من الاسم، كم سيكلف هذا؟ وأين سنذهب بالبضاعة؟

-هذا كله سهل، البضاعة ننقلها إلى غرفة صف من صفوف المدرسة، أنا أعرف المديرة الجديدة، والمدرسة الآن كلها في عطلة، ولا دوام، وخلال أسبوع واحد، نغير كل شيء.

-والكلفة؟

-أنا أدفعها، وأنت تسدد بالتقسيط.

-واسم المحل؟ ما رأيك محل الأمان، باسم زوجتي أمينة؟

يصمت، يتردد، لا أعرف ماذا سيقول، فجأة يتكلم:

-سوبر ماركت بُراق.

-أخشى أن يعترض أحد على الاسم، لهذا الاسم إيحاء ديني.

-لن يعترض أحد، أنا قلت براق، ولم أقل البراق، واسم براق يدل على قفزة نوعية، قفزة نحو المستقبل، لا أكثر، وسوف نفتتح المحل بباقات الزهور، وبأضواء، ومكبرات صوت، والأغاني تملأ حي صلاح الدين كله، أو تصل على الأقل إلى الشارع الرئيسي، ونوزع القهوة العربية ضيافة، مع قطع السكاكر.

أصمت، أفكر قليلًا، أقول له:

-نحن الآن في السابع من حزيران، وابني غدًا عنده امتحان الشهادة الإعدادية، لا أريد أن أتعبه في أثناء الامتحان.

-لن يتعب منَّا أحد، لا هو، ولا أنا، ولا أنت، نحن لن نعمل في المحل، العمال سيقومون بالعمل كله، لا تكلِّف نفسك حتى ولا بنظرة إلى المحل، اترك كل شيء لي.

يصمت، ثم يتكلم بلهجة مختلفة:

-أنت ابق فوق في الشقة مع زوجتك، امض معها ومع البنات هذا الأسبوع، بدلًا من أيام العيد، أنا أعرف، أنت أمضيت العيد كله في المحل، ولم تمنح الأسرة حقها.

ويصمت، ثم يضيف:

-اسمع مني، خذ الأسرة إلى البحر.

-كيف أذهب إلى البحر، وأترك ابني منير وحده، وعنده امتحان الشهادة الإعدادية؟

-أنت دائما تختلق الأعذار.

-الأعذار موجودة، تفرض نفسها.

كلامه صحيح، طوال حياتي ما رأيت البحر، لكن هذه هي حياتي، بحري هو محلي، أخشى أموت إذا غادرت المحل.

يا إلهي، كيف غامرت وسافرت إلى دمشق؟

٢٥

في أقل من أسبوع يحقّق أبو سعيد كل ما وَعَدَ به.

في يوم الافتتاح يشـهد المحل إقبالًا لم أتوقعه، بعض المواد تكاد تنفد، ولا سيما المنظفات.

لم يمض على افتتاح المحل سـوى أسـبوع، حتى يُقْبِلَ على المحل زبائن جدد، لا أعرفهم من قبل.

هناك طلب على اللبن والجبن بأنواعه، والزبدة، اشـتريت برَّادًا، وبدأت أجلب هذه المواد، ازداد عدد الزبائن، وما لبثت أن اشـتريت ثلاجة مسـطحة، أعرض فيها مختلف أنواع المثلجات، وهي تلقى الإقبال.

على غير العادة، أحيانًا تقف سيارة أمام المحل، وتنزل سيدة تشتري، يحمل ابني ما تشتريه، ويضعه في صندوق السيارة.

لم يعد ابني يذهب إلى محل تصـليح السـيارات، بدأ يحب العمل معي في المحل، لكني لا أريد له أن يعشـق هذا العمل، لا أريده أن يكرر حياتي، مثلما كررت حياة أبي.

اليوم ذهب ابني إلى شـعبة الامتحانات، ينتظر نتيجة امتحان الشـهادة الإعدادية، أنتظره بفارغ الصـبر، سـأتعاون مع عامل يسـاعدني في المحل، وأعطيه الأجر المناسب، سأترك ابني يتفرغ للدراسة.

يدخل منير إلى المحل، مشرق الوجه، وهو يُعْلِن:

- أبي، بارِكْ لي، نجحتُ في امتحان الشـهادة الإعدادية، وبمجموع يؤهلني لدخول الثانوية العامة.

تنهمر الدموع من عيني.

أناوله صندوق الحاسوب، أقول له:

- تفضّلْ، هدية نجاحك.

ليتني درســتُ معه كتب الصــف الثالث الإعدادي، كنت تقدمت مثله مع الأحرار إلى امتحان الشــهادة الإعدادية، كثير من الناس يتابعون الدراســة في ســن متأخرة.

العام القادم سأتقدم إلى امتحان الشهادة الإعدادية.

٢٦

أرجع إلى عادتي، صرت أنزل إلى المحل في السادسة والنصف، الصباح رباح، والرزق في الصباح وفير.

عند العاشرة ليلًا، وأحيانًا في التاسعة، أغلق المحل، وأصعد إلى الشقة.

زوجتي والأولاد لهم حق عليَّ.

قبل يومين هوت عمارة على الأرض في الشارع الموازي لشارع الخَضْرَاوات، على بعد شارعين من شارعنا، شارع المدرسة، قصفت بصاروخ من طائرة، عدد الشهداء بلغ العشرة، والجرحى أكثر من عشرين.

بدأت أتابع الأخبار في القنوات الفضائية قبل النوم، سأشتري شاشة صغيرة وأضعها في المحل، سأضعها قبالة المكان الذي أقف فيه دائما داخل المحل، سأتابع كل القنوات الفضائية، سأتابع الأخبار ساعة بساعة.

حوالي التاسعة يدخل أبو سعيد، يبادر إلى القول:

-بارِكْ لي، أجَّرْتُ الشقة إلى أسرة راقية جدًّا.

-بالتوفيق.

-أسرة صغيرة، طبيب، وزوجته، وابنتهم، في الخامسة من عمرها، سيصلون الآن لاستلام المفاتيح، وعدتهم باللقاء هنا عندك.

أفكر قليلًا، أسأله:

-طبيب، يستأجر شقة في هذا الحي المتواضع؟

-قبل أربعة أيام، كان في سهرة في بيت أهله، ومعه زوجته وابنته، اتصل به جيرانه في حي الفرقان، شقته في الطابق الأخير، نزل على الشقة صاروخ، دمرت الشقة بالكامل، واحترق كل ما فيها، لم يسلم غير هو وأسرته وسيارته، رجع نام عند أهله.

دقائق، وتصل سيارة مرسيدس بيضاء، فارهة، ينزل منها رجل مديد القامة، تنزل زوجته، تفتح الباب الخلفي، وتنزل طفلة، ترتدي معطفًا وردي اللون، كأنه الجُلَّنار، شعرها الأشقر الطويل ينساب على ظهرها، مثل شعلة نار.

أبوسعيد يقول لي:

-تفضَّلْ، أعرِّفْكَ عليهم.

أخرج معه مِنَ المحل، يقدِّمهم لي، يقدِّمني لهم.

تتلاقى الأيدي في مصافحة ترحيبية.

أدنو من الطفلة، أمدُّ يدي إليها مصافحًا، يدُها ناعمة، تنام في يدي، كالعصفور، أسألها:

-ما اسمك حبيبتي؟

بطلاقة وصوت ناعم تلفظ:

-رفيف.

٢٧

بعد أقل من أسبوع ذات صباح يقف أبو سعيد في باب المحل، يمتص نَفَسًا من بقية سيجارة بين شفتيه، يرميها خارجًا، ثم يدخل، وهو ينفث الدخان.

أعرفه لا يدخن، منذ عشر سنين افتتح المحل هنا، ونشأت بيننا صحبة، هو أكبر مني في العمر، لكن لا أظنه بلغ السبعين.

-أهلا، أخي أبو سعيد، أراك تدخن.

-رجعت إليه بعد أكثر من عشرين سنة من الإقلاع عنه.

أراه متجهم الوجه.

-ما الذي جرى؟

يصمت، يقعد في كرسي قبالتي، يتردد، يتكلم:

-المساعد الأول موسى معتقل.

أسأل مدهوشًا:

-من هو المساعد الأول موسى؟

يجيب بصوت خافت لاهث:

-المساعد الذي أوصلك بالسيارة.

-ولماذا هو معتقل؟

-عثروا في جيبه على شريط للمطربة أصالة، وهم من قبل كانوا يترصدونه.

يزفر، ثم يضيف:

-النقيب وسيم انشق، هرب مع أسرته إلى إدلب.

ملامح وجهه غير طبيعية، لا أعرف هل هو خائف أم مستبشر؟

انتهت

أ.د. أحمد زياد محبك
أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب
عضو اتحاد الكتاب العرب
قاصّ وناقد

السيرة الشخصية:

- من مواليد مدينة حلب في ١٠/٥/ ١٩٤٩
- تخرج في قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٧٢
- حاز دبلوم الدراسات العليا في جامعة دمشق عام ١٩٧٣.
- نال درجة الماجستير في الأدب العربي الحديث من جامعة حلب عام ١٩٨١.
- عين مدرسًا في ثانويات حلب عام ١٩٧٤
- عين معيدًا في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٧٧.
- نال شـــهادة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشـــق عام ١٩٨٤.
- رفع إلى مرتبة أستاذ في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٩٥.

النشاط الثقافي:

عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام ١٩٨٣ .
عضو هيئة تحرير جريدة الأسبوع الأدبي من عام ١٩٩٧ إلى عام ٢٠٠٠ .
عضو جمعية العاديات بحلب منذ عام ١٩٩٨.
حاز جائزة هيروشيما في المركز الياباني بحلب عن القصة القصيرة عام١٩٩٥
حاز جائزة البتاني في الرقة عن القصة القصيرة عام ١٩٩٧.
حاز جائزة جريدة الثورة بدمشق عن القصة القصيرة عام ١٩٩٨.

حاز جائزة مدينة حلب للإبداع الفكري عام ١٩٩٨.
أمين سر اتحاد الكتاب العرب – فرع حلب منذ عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠١٠.
أوفده اتحاد الكتاب العرب لمدة أسبوع إلى الجزائر العاصمة ١٩٨٨ في زيارة اطلاعية.
أوفدته جامعة حلب إلى فرنسة ليحاضر في طلاب الدراسات العليا بجامعة ليون الثانية لمدة أسبوع عام ١٩٩٥.
حاضر لمدة أسبوع في مدرسي اللغة العربية بمعهد تعليم اللغات الأم في استوكهولم بالسويد بدعوة من المعهد نفسه عام ٢٠٠٠.
كرمته جمعية النقد الأدبي في اتحاد الكتاب العرب بدمشق بالتعاون مع فرع اتحاد الكتاب العرب في حلب عام ٢٠٠١.
أوفدته جامعة حلب إلى جامعة عين شمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام ٢٠٠٢.
عضو لجنة تحكيم في مسابقات كثيرة في اتحاد الكتاب العرب وفي اتحاد شبيبة الثورة ومنظمة الطلائع وجائزة باسل للإبداع الفكري في مدينة حلب لدورات متعددة.
عضو لجنة تحكيم في مسابقة القصة القصيرة التي أعلنت عنها مجلة ديوان العرب (الرقمية) في القاهرة عام ٢٠٠٥، وحضر حفل توزيع الجوائز في القاهرة.
عضو أسرة التحرير في موقع ديوان العرب ٢٠٠٨.
حاضر لمدة أسبوع في كلية الإلهيات في جامعة وان بمدينة وان في تركيا عام ٢٠٠٩
عضو المجلس الأعلى للغة العربية، بيروت، ٢٠٠٩.
أوفدته جامعة حلب مرة ثانية إلى جامعة عين شمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام ٢٠١٠.
عضو لجنة تحكيم في مسابقة ديوان العرب للمجموعة القصصية عام ٢٠١٢
رئيس تحرير مجلة بحوث جامعة حلب. سلسلة العلوم الإنسانية ٢٠١٥.٢٠١٩
رئيس قسم اللغة العربية بجامعة حلب ٢٠١٧.٢٠١٩

رئيس فرع حلب لاتحاد الكتاب العرب ٢٠١٥.٢٠٢١
عضو لجنة تحكيم مسابقة ديوان العرب للإبداع الشعري لجنة قصيدة البحر عام ٢٠٢٢ ودعاه ديوان العرب لحضور حفل توزيع الجوائز في القاهرة، لكنه لم يتمكن من الحضور.
تقاعد عن التدريس في جامعة حلب عام ٢٠٢٣.
عضو لجنة تحكيم مسابقة ديوان العرب للإبداع الشعري والفني عام ٢٠٢٣، وحضر في القاهرة حفل توزيع الجوائز بدعوة من ديوان العرب.

المؤلفات المنشورة :

١. حركة التأليف المسرحي في سورية، (دراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢.
٢. من الحكايات الشعبية،(حكايات شعبية)، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣.
٣. يوم لرجل واحد،(قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦.
٤. المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر، (دراسة)، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩.
٥. حجارة أرضنا، (قصص قصيرة)، مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٨٩.
٦. الكوبرا تصنع العسل، (رواية)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦.
٧. بدر الزمان، (مسرحية)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦.
٨. حلم الأجفان المطبقة، (قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦.

٩. عريشة الياسمين، (قصص قصيرة)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦.
١٠. حكايات شعبية (نصوص ودراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩.
١١. دروب الشعر العربي الحديث (دراسة)، مطبوعات جامعة حلب، حلب ٢٠٠٠.
١٢. لأنكِ معي (قصص قصيرة جداً)، دار شمأل، دمشق، ٢٠٠٠.
١٣. طعم العصافير (قصص قصيرة)، دار القلم العربي، حلب، ٢٠٠١.
١٤. العودة إلى البحر(قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠١.
١٥. قصائد مقارنة، (دراسة)، منشورات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠١.
١٦. من الأسطورة إلى القصة القصيرة، (دراسة)، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠١.
١٧. كتاب تكريم الدكتور أحمد زياد محبك(مجموعة من المؤلفين) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤.
١٨. الرحيل من أجل مها (قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م.
١٩. انكسارات (بحوث ومقالات)، دار المعرفة، بيروت،٢٠٠٤.
٢٠. متعة الرواية (دراسة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
٢١. من التراث الشعبي (دراسة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
٢٢. وردات في الليل الأخير (قصص قصيرة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
٢٣. عمر أبو ريشة والفنون الجميلة، (دراسة)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦.

عمر أبو ريشة والفنون الجميلة،(دراسة)، دارالفرقان للغات، حلب، ط. ثانية، ٢٠١١.

٢٤. قصيدة النثر،(دراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠٧.

٢٥. قراءات في الشعر العربي الحديث، (دراسة)، مطبوعات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠٧.

٢٦. نوافذ وشرفات، (مقالات)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧.

٢٧. ريش نعام، (قصص قصيرة جداً)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧.

٢٨. نجوم صغيرة، (قصص قصيرة جداً)، مطبعة الأصيل، حلب، ٢٠٠٨.

٢٩. الأعمدة والغزالة، (قصص قصيرة)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩.

٣٠. التفاحة الأخيرة في الحقل، (قصص قصيرة جدا)، موقع فولا بوك، ٢٠٠٩.

٣١. النيل لا يجف، (رواية)، موقع فوله بوك، ٢٠١٠

٣٢. اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين، (دراسة) دار الفرقات للغات، حلب، ٢٠١١

٣٣. حمامات بيض ونارجيلة، (رواية)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١١.

٣٤. نقد السرد، (دراسة)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢.

٣٥. فوق سطح العمارة، (مجموعة قصصية)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢.

٣٦. أبو معتز والكناريات (مجموعة قصصية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٤.

٣٧. صورة القمر في الشعر العربي(دراسة)، دار ليوان الربيع، الرياض، السعودية، ٢٠١٤.

٣٨. المرأة، المكان، الشعر، عند الدكتور عبد العزيز محيي الدين خوجة، دار ليوان الربيع، الرياض، السعودية، ٢٠١٤.
٣٩. ما أزال أنتظر (مجموعة قصص قصرة جداً)، الشارقة، كتاب الرافد، آب، ٢٠١٥.
٤٠. شقة على شارع النيل (رواية)، دار أمل الجديدة، دمشق، ٢٠١٨.
٤١. نظرات متبادلة، (مجموعة قصص)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٨.
٤٢. السرير والمرآة، (مجموعة قصص)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٩.
٤٣. الشعر العربي الحديث، (دراسة) منشورات جامعة حلب، حلب، ٢٠١٩
٤٤. شهريار يعترف(مسرحيات قصيرة)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٢٤.
٤٥. المرأة الشاعر الشعر، دراسة في شغر توفيق أحمد، دمشق، ٢٠٢٤.
٤٦. قوس قزح فوق غزة، قصص قصيرة، دار نون، ناشرون، عمان، الأردن، ٢٠٢٤.
٤٧. بانتظار فاتنة (مجموعة قصص) موقع فوله بوك، ٢٠٢٥.
٤٨. الوردة في مكانها (مجموعة قصصية) موقع فولة بوك، ٢٠٢٦
٤٩. الغياب (مجموعة قصصية)، موقع فولة بوك، ٢٠٢٦
٥٠. دوائر في نقد الشعر(دراسة) موقع فولة بوك، ٢٠٢٦
٥١. قراءات في القصة والرواية (دراسة) فولة بوك، ٢٠٢٦
٥٢. مقدماتي لكتب أصدقائي (مقالا ت) فولة بوك، ٢٠٢٦
٥٣ عيد ميلاد أمينة، (مسرحية)، فولة بوك، ٢٠٢٦
٥٤ سرير الأمان، (رواية) فولة بوك، ٢٠٢٦.

المؤلفات بالمشاركة:
ستة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعات سورية (١٩٨٨١٩٨٦)
خمسة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعة سبها بليبيا (١٩٩٢)
كتاب أدباء من حلب (مشاركة وإشراف) (ستة أجزاء) حلب (٢٠٠٠.٢٠١١)
عشرون مادة لموسوعة (أعلام العلماء العرب والمسلمين) للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في تونس (٢٠٠٤.٢٠٠٧).
الحركة الأدبية في بلاد الشام، مجلدان، إصدار الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، دمشق (٢٠٠٨).

عنوان المراسلة :
البريد العادي :كلية الآداب جامعة حلب حلب سورية
البريد الإلكتروني : mohabek@gmail.com
هاتف المنزل : ٢٦٤٢١٣٢ ٢١ ٠٠٩٦٣
الهاتف الجوال والواتس: ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢